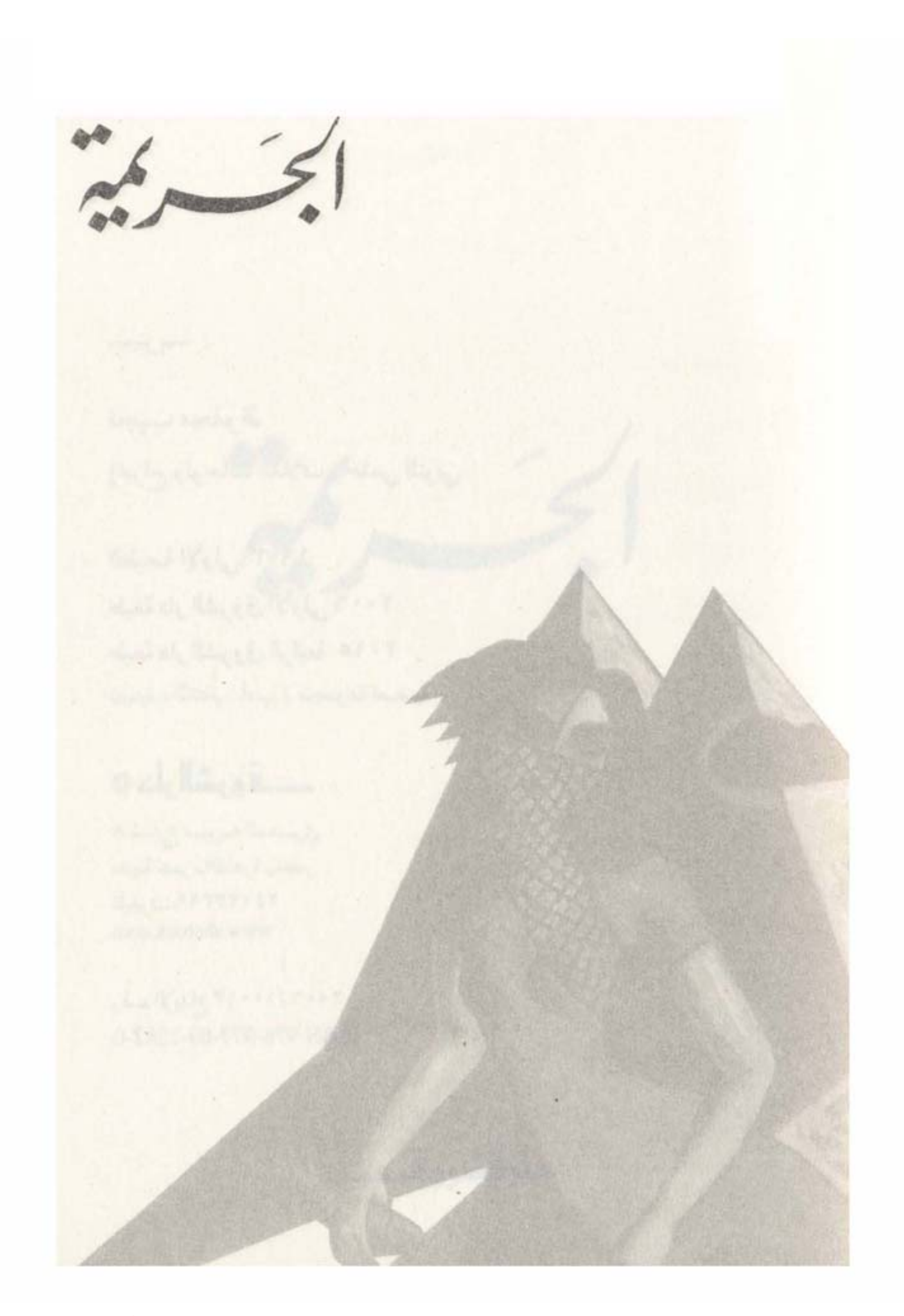
نجيب محفوظ

الجريمة

نجيب محفوظ

الجريمة

دار الشروق


الجريمة

الجريمة

نجيب محفوظ

إخراج ولوحات الغلاف : حلمي التوني

الطبعة الأولى ١٩٧٣

طبعة دار الشروق الأولى ٢٠٠٦

طبعة دار الشروق الرابعة ٢٠١٥

تصنيف الكتاب: أدب / مجموعة قصصية

٨ شارع سيبويه المصري
مدينة نصر ـ القاهرة ـ مصر
تليفون: ٢٤٠٢٣٣٩٩
www.shorouk.com

رقم الإيداع ١٠٠١٣/ ٢٠٠٦
ISBN 978-977-09-1582-0

المحتـــويـــات

تحقيـــــــق

دق جرس الباب. انفصل جسداهما فى حركة متشنجة بالفزع. وثبا إلى ملابسهما وهو يهمس:

ـ قلت إنك لا تتوقعين قدوم أحد..

فقالت هامسة أيضا:

ـ لعله الكواء..

وكان يرتدى ملابسه بيديه وقدميه ويقول:

ـ يجب أن أستعد للاختفاء ولكن أين؟

ـ لا أظن أنك ستضطر إلى ذلك، وإذا وقع المستحيل فادخل تحت السرير..

وغادرت الحجرة وهى تحبك الروب حولها ثم ردت الباب. نظر إلى أسفل السرير ولكنه مضى بخفة إلى ما وراء الباب يتنصّت. سمع صوت الباب وهو يفتح، ثم وهو يغلق، ووقع قدمين ثقيلتين. فى لحظات خاطفة توارى تحت السرير. من القادم؟. ليس الزوج وإلا لجاء إلى حجرة النوم ليخلع ملابسه. ليس الزوج على وجه اليقين فقد اتصلت به تليفونيا فى الإسكندرية منذ ساعة واحدة. إنه فيما يبدو من المترددين على البيت، بل هو من أهل البيت على نحو ما وإلا ما اقتحمه فى هذه الساعة من الليل. لبد فى مكمنه يمزقه القلق والإحساس بالنكد بعد أن ثمل بدفء اللذة. وليصبر فسيذهب عاجلا، لا يمكن أن تطول

الزيارة إلى ما لا نهاية، وسينتهى بالتالى عذابه. انقضت عليه فكرة كحشرة طائرة، ألا يحتمل أن يدخل القادم حجرة النوم فيرى زجاجة الكونياك وعلبة الشيكولاتة؟. هل يزحف إلى الخارج ليعود بالزجاجة والعلبة؟. لكنه لم يتحرك، لم يجد الجرأة الكافية، وأطبقت عليه التعاسة أكثر فأكثر. ومضى الوقت وطال وثقل. تلهى بالنظر فى نقوش السجادة وألوانها وقد اختلطت وغامت تحت نور الأباجورة الأحمر الخافت، وإلى أرجل المقاعد والشيفونيرة المغروزة فى وبر السجادة. وارتعد لسماع صوت طارئ، ثم رأى باب الحجرة وهو يفتح فى هدوء. دخل شخص بلا ريب، ها هو حذاؤه الأبيض ذو السطح البنى وطرف بنطلونه. واتجه يسارا نحو الصوان ففتحه. وقف أمامه دقيقة أو دقيقتين ولكن أين لطيفة؟. وأغلق الصوان ثم مضى نحو الباب فى هدوء كما جاء. ترى ما معنى ذلك؟. ومتى يخرج من زنزانته؟. واشتد به التوتر والإرهاق واليأس. خيل إليه أنه وقع فى شرك وأن يدا حديدية تمتد للقبض عليه وأن قدميه تندسان فى حذاء أبيض ذى سطح بنى، وأن عليه أن يرسم خطة كاملة للتملص من مأزقه فى زنزانته. وقال له صوت باطنى يضطرم بالرعب والإلهام أن نجاته رهن بقوة خياله، وأنها وحدها القادرة على تحويل الكابوس إلى حلم. وهو لن يبقى تحت السرير إلى الأبد فى هذا الصمت العميق العجيب. إنه يمد ذراعه لينظر فى الساعة، ويخرج رأسه فى حذر كالسلحفاة ليتنفس هواء نقيا بعض الشىء. ويرهف السمع فيجد هدوءا مخيفا ولكنه يشجع على مغادرة الزنزانة. كأن الموت يربض فى الظلام مجمدا كل حركة مسكتا كل صوت. وأرهقه التعب لحد التهور. وتجمعت كل قواه المضمحلة فى وثبة جنونية للدفاع عن النفس فى مغامرة مرتجلة يائسة..

* * *

طلع الصبح دون أن يغمض له جفن. سمع دقات رقيقة على باب حجرته. وجاءه صوت محشرج هاتفا:

ـ سى عمرو، اصحح. .

ما أجدر أن يتغيب اليوم بعذر ما ولكنه نبذ الفكرة بلا تردد قائلا لنفسه «هو الجنون بعينه»، وصاح:

ـ صحيت يا أم سمعة!

ولما جلس إلى المائدة الصغيرة فى الصالة رأى طبق المدمس وقدح الشاى باللبن والرغيف المجمر فمد يده إلى القدح وهو يقول:

ـ سأكتفى بالشاى. .

فلم يفصح وجه العجوز عن تعبير. وجه ذو سحنة واحدة. ولكنها قالت:

ـ كل لقمة تسند قلبك. .

المنظر المرعب لا يبرح مخيلته. يعذبه ويطارده. فر بقوة تركبه وتدفعه بلا حذر. نسى زجاجة الكونياك وعلبة الشيكولاتة فلم يذكرهما إلا فى ظلام حجرته. ارتدى ملابسه وغادر الشقة. حمل الأرض فوق رأسه. ابتاع جريدة الصباح وهو يخترق شارع القبة بالجيزة ولكنه قال لنفسه «لم يكتشف شىء بعد». وأخيرا وجد نفسه جالسا إلى مكتبه بالإدارة. ونظر إلى المكتب الخالى بعين متلصصة، وهو يقع فيما أمامه على الجانب الآخر للحجرة. وشرع فى العمل وهو يختلس إليه بالنظر. إذا تمت له النجاة فسيحزن عليها طويلا أما الآن فلاوقت لديه للحزن. وتساءل الرئيس:

ـ ست لطفية لم تحضر، ألم تعتذر؟

ولما لم يسمع جوابا عاد يقول:

ـ الموظفات أعذارهن لا تنتهى. .

وأثار قوله ضحكات على سبيل التشفى أو الملق. لم يشترك فى الضحك. تساءل فيما بينه وبين نفسه ترى ألم يلاحظ أحد شيئا مما كان يتبادل فى صمت بينه وبين المكتب الخالى؟ ربما أدلى شاهد بملاحظة عابرة تقلب دنياه رأسا على عقب. أو يكون آخر رآهما فى أحد منعطفات شارع الهرم. ثم إنه نسى هناك زجاجة الكونياك وعلبة الشيكولاتة. أى أسرار يمكن أن تبوح بها الزجاجة والعلبة؟. إن كل شىء ينطق أمام شياطين المحققين ويخلق الأساطير. وغير بعيد أن يكون قد نسى أشياء أخرى. وبصماته انطبعت بلا حساب ولا حذر. وربما وقع المحققون فى الشرك وأغمضوا العين عن القاتل الحقيقى.

وجاءه صوت الرئيس وهو يقول بصوت آمر رنّان:

ـ يا سيد عمرو، سأحول إليك الأوراق العاجلة الداخلة فى اختصاص ست لطفية..

لماذا اختاره هو بالذات؟. ربما لأنه أحدث الموظفين عهدا بالوظيفة. أم تراه يعنى شيئا وراء ذلك ؟. إنه قصير ماكر ذو نظرة تحتانية فهل يعنى شيئاً آخر حقا؟!. واسترق نظرة من الوجوه ليرى أثر الأمر الإدارى ولكنه لم يقرأ شيئا. كل شىء هادئ وعادى. والقاتل مجهول فما معنى الخوف؟. وكان يصارع التشتت والتمزق عندما سمع صوتا غريبا يسأل بأدب:

ـ هل الست لطفية موظفة فى هذه الإدارة؟

فأجابه موظف:

ـ أجل ولكنها لم تحضر اليوم.

نظر إلى القادم باهتمام فرأى شابا طويلا نحيلا غامق السمرة يرتدى قميصا أزرق وبنطلونا رماديا، سرعان ما غادر الحجرة على أثر الإجابة التى تلقاها. لم يسأله أحد عن هويته ولم يعلن هو عنها، ونسى تماما

مجرد اختفائه. فكر فيه طويلا وساورته مخاوف شتى. وتجسدت لمخيلته الجثة ربما للمرة الألف. وتذكر كيف انهزم لدى رؤيتها ففر كالمجنون. غرق فى أفكاره ثم صحا بعد وقت لا يمكن تحديده على حديث يدور حول حذاء أبيض. ارتعد قلبه. ماذا يقولون؟. أحدهم يقول إن الأحذية البيضاء باتت نادرة الاستعمال، فقال آخر إن الحذاء يعجبه، فعاد الأول يقول إنه يتسخ لأوهى الأسباب ويصعب تنظيفه وتلميعه بسبب سطحه البنى. اشتدت به الرعدة فتساءل:

ـ ما حكاية الحذاء؟

فأجابه الموظف الأول:

ـ حذاء أبيض ذو سطح بنى من النوع الكلاسيكى، رأيناه فى قدمى الشاب الذى جاء يسأل عن لطفية.

ـ لا!

ندت عنه بعصبية ملفتة للانتباه وهو يتهاوى فى انهيار كامل. ولما شعر بالأعين المحدقة فيه قال:

ـ آسف، الظاهر أنى أصبت بالأنفلونزا!

وضحك ضحكة عالية لا تناسب المقام. ولم يستطع صبرا فسأل الموظف الآخر:

ـ أكان الشاب ينتعل حذاء أبيض ذا سطح بنى؟

ـ أجل، وهو يعجبنى، هذه هى المسألة.

واستأذن فى الذهاب إلى دورة المياه ولكنه اندفع فى الطرقة الموصلة إلى الباب الخارجى. ودار دورة عشوائية حول مبنى الوزارة ولكنه لم يعثر للشاب على أثر. ولبث مذهولا وهو يقول لنفسه: هكذا تقع الأحداث التى نسمع عنها من بعيد دون مبالاة.

* * *

احتلت الحادثة مكانها فى صفحة الحوادث . قرأ بعناية وانتباه كامل . بدأت بملاحظة عابرة من البواب لباب شقة المقاول حسنين جوده الذى لم يكن مغلقا كعادته وانتهت باكتشاف جثة زوجة المقاول الموظفة . اتصل بشرطة النجدة . تبين أن المرأة خنقت بينما كان زوجها فى رحلة تجارية بالإسكندرية . لم تكتشف سرقة . عثر على زجاجة كونياك وعلبة شيكولاطة . وطبعا التحقيق ماض فى طريقه إلى الكشف عن أسرار الجريمة والقبض على القاتل . ووجد الموظفين واجمين والجو مشحونا بأخبار الجريمة وتأويلاتها . ثمة حسرة ورثاء ، وتساؤل عن بواعث الجريمة ، وعن معنى وجود الكونياك والشيكولاطة فى غياب الزوج . وقال أحدهم :

ـ كل شىء مفهوم ولكن لِم قتلها؟ .

أجل لِم قتلها؟ . وقعت الواقعة فى مجال نفسه وهو لا يفقه لها معنى . ليس الواقع كما يتصورون وسوف يندفعون جميعا كالسكارى فى طريق الضلال ليرتكبوا جريمة أخرى . وقد جاءهم صاحب الحذاء بقدميه لكنهم يتساءلون عن صاحب الخمر والشيكولاطة . هو وحده يتشوق لمعرفته وكشف سره المغلق فلعله يعثر عليه فى الجنازة . بل يجب أن يعثر عليه فى الجنازة كما يقضى به المنطق . وذهب ممتلئا بالتصميم بقدر ما هو ممتلئ بالشجن . وتفحص بعين ثاقبة أهل الفقيدة من المستقبلين . رأى الزوج الذى يوشك أن يصرعه المرض ، ورأى آخرين ، ولكنه لم يعثر لضالته الماكرة على أثر . وسار وراء النعش وهو يختلس إليه النظر بقلب منقبض . وكاد إلى حين ينسى مخاوفه تحت موجة الحزن التى غمرته . وتذكر قصة حبه القصيرة العميقة التى مضت فى عناء ولم تخلف إلا التعاسة والرعب .

* * *

من هو صاحب الحذاء الأبيض؟ . هل رآه البواب ليلة الجريمة وهل يعرفه؟ . أما هو فقد رآه البواب، ولما سأله عن مقصده أخبره أنه ذاهب إلى طبيب الأسنان بالدور الثالث، وإلى العيادة ذهب فعلا للكشف والتنظيف تنفيذا لتدبير حكيم اتفق عليه مع الفقيدة، فمن تلك الناحية لا خوف عليه .

وقال موظف بالإدارة بعد أن فرغ من قراءة الجريدة :

ـ الأمور تتضح، فالزوج مريض جدا، وله مطلقة أنجب منها شابا وشابة جامعيين، والعلاقة بينه وبين أسرته الأولى سيئة جدا . .

فقال ثان :

ـ وإذن فيهم أسرته الأصلية التخلص من الزوجة الجديدة قبل أن تستولى على أموال أبيهم .

وتساءل ثالث :

ـ هل من علاقة بين ابن المقاول وبين الخمر والشيكولاتة ؟

فقال الأول :

ـ لن يفوت المحقق شىء من ذلك .

فقال رابع :

ـ سيصلون إليه عن طريق الزجاجة والعلبة . .

فقال عمرو وهو يدارى حنقه :

ـ توجد آلاف الزجاجات وآلاف العلب !

ـ ولكن العلبة تدل على الدكان والدكان تدل على الشارى، وقد يعثرون على لفافة الزجاجة فيعرف المخزن أو المحل . .

ـ ثم يعرض الشاب أو المتهم على عمال المحل والمخزن .

جميع الأدلة متوفرة إذا تركزت الشبهات فى الزجاجة والعلبة . فكر

فى ذلك طويلا وقلبه يغوص فى أعماق من الكآبة. وعاد الموظف الأول يقول:

- الأمر واضح، ابن المقاول أنشأ علاقة مع المرحومة ثم قتلها..

لعل ذلك كذلك، أو لعل القاتل هو صاحب الحذاء الأبيض، أو لعل ابن المقاول هو صاحب الحذاء الأبيض. إن صح احتمال من تلك الاحتمالات فقد نجا هو من كل سوء كما ينبغى له، أما إذا أصر المحقق على تتبع أثر صاحب الخمر والشيكولاطة فلن يعجز عن الوصول إلى مصدريهما، وهو - عمرو - معروف بشخصه دون هويته لدى صاحب محل «الزهرة» كما هو معروف عند فتاة حلوانى «ألف ليلة»، وغير بعيد أن أوصافه تتردد فى هذه اللحظة على الشفاه بين جدران حجرة التحقيق.

* * *

ونُشرت صور لطفية وحسنين زوجها ومحمد ابنه لأول مرة فى الجريدة، وتبين لعمرو أن ابن المقاول شخص آخر غير الشاب صاحب الحذاء الأبيض. وتابع تعليقات الموظفين بالإدارة باهتمام وتركيز:

- تقول الجريدة إن الشرطة عثرت على خيوط يمكن أن تؤدى إلى القاتل...

- لعلها تقصد الشاب ابن المقاول؟

- أو الزجاجة والعلبة؟

- سر الجريمة كامن فى الزجاجة..

ورفع الرئيس رأسه عن رسالة كان يقرؤها بإمعان ثم قال:

- يا جماعة، نحن مطلوبون جميعا لسماع أقوالنا..

* * *

شهد كل موظف بما يعلمه ولم يكن ذا بال، مثل تاريخ التحاق لطفية بالعمل منذ عشرة أعوام، وزواجها منذ عامين. وشهد لها الرئيس بحسن السير والسلوك والمعاملة، وبأنها كانت موظفة ممتازة. ولكن الفراش ـ عم سليمان ـ أدلى بواقعة مهمة فقال إنه رآها مرة بصحبة شاب قبيل زواجها هو نفس الشاب الذى جاء الإدارة صباح الجريمة سائلا عنها. وأكد الجميع واقعة الزيارة الصباحية وأعطوا أوصافا تقريبية للشخص. واهتم المحقق بالواقعة بطبيعة الحال. ولما دعى عمرو لأخذ أقواله عن الشخص المجهول وصفه بدقة ملحوظة، طوله وحجمه ولونه وملابسه حتى الحذاء، فقال له المحقق:

ـ يبدو أنك تفحصته بعناية!

فتضايق عمرو من الملاحظة ولكنه قال بثبات:

ـ كان يقف أمامى مباشرة..

وكان يشعر طيلة الوقت بضيق وتوتر فزادته الملاحظة ضيقا وتوترا. وضاعف من همه ما ذاع فى حجرة المحقق من أنه ثبت أن ابن المقاول كان فى رحلة جماعية ليلة الجريمة، وأن الشبهات تبددت ـ بالتالى ـ من حوله..

* * *

تقمص دماغ المحقق فطارد نفسه بنفسه. من الشاب الذى رآه عم سليمان مع الفقيدة ولم زار مكتبها صباح ارتكاب الجريمة؟. محتمل أن يكون صاحب الخمرَ والشيكولاتة أو يكون شخصا آخر لا علاقة له بالجريمة. السر قابع وراء الزجاجة والعلبة. فلنتخيل القصة من بدايتها عندما بدأت بغرام. انتهز العاشقان فرصة سفر الزوج فتواعدا فى بيت الزوجية. وفى الموعد المضروب تسلل الشاب إلى العمارة. يسير التسلل إلى عمارة ضخمة بها أكثر من عيادة طبية. وها هو يجالسها كما يفعل

العشاق. كيف ومتى سيطرت فكرة القتل؟ إنها لا تخلق بغتة وبلا مقدمات. ربما جاء بها جاهزة معه وغير بعيد أن تنشأ عقب خلاف طارئ أو أثر ميل من المرأة نحو إنهاء العلاقة. لعله شاب غر ومحب حتى الجنون وقع فى هوى امرأة طموح لا حد لطموحها فتزوجت من المقاول وأبقت على علاقة الشاب بها لتستحوذ على المال الجاه والحب فكرهها بقدر ما أحبها ولما قالت له بدلال وهى تلاطفه «اخنقنى» طوق عنقها بقبضتيه وشد بكل عنف فلم يتركها إلا جثة هامدة. ارتكب جريمته ثم هرب ولكنه نسى وراءه الزجاجة والعلبة. سيظل مهددا بأن تراه فتاة حلوانى دمشق أو صاحب محل «الزهرة» أو يساق إليهما فى ظرف ما فيتعرفان عليه. ويتضح أنه زميل للفقيدة فى إدارة واحدة فتقوى الشبهة وتتوطد. وإذا اعترف بأنه صاحب الزجاجة والعلبة، وبأنه كان عشيق المرأة، فأى قوة يمكن أن تدفع عنه التهمة أو تنقذه من حبل المشنقة مهما أنكر وأصر على الإنكار ؟!

* * *

من الحكمة أن يكمل علاجه عند طبيب الأسنان. ها هو الطريق مرة أخرى وها هى العمارة. ترى أما زال حسنين جودة يشغل العمارة؟ وجد البواب فوق الأريكة وراء الباب مباشرة. إنه صعيدى فيما يبدو، ويلف سيجارة. ومضى إلى الداخل فقام الرجل وتبعه. دخل المصعد وراءه فقال باقتضاب:

ـ الدكتور نصر طبيب الأسنان.

وهو يغادر المصعد فى الدور الثالث حانت منه نظرة إلى الأرض فرأى حذاء البواب فارتعدت مفاصله. حذاء أبيض ذو سطح بنى! مضى إلى العيادة بذهن مشتت. أيكون البواب هو القاتل؟ ولكنه يذكر تماما أنه رأى الحذاء تحت طرفى بنطلون لا جلباب. أم يكون البصر قد

خدعه ؟! وغرق فى ذهوله حتى دعى إلى حجرة الكشف . جلس وهو يتساءل :

ـ هل ينتهى التنظيف فى هذه الجلسة ؟

فقال الطبيب :

ـ أراك نافد الصبر .

فسأله :

ـ ما أخبار الجريمة ؟

ـ آه . . تلك المرأة! كنت أعرفها جيدا فقد حضرت مع زوجها عند تركيب ضرسين له!

ـ حقا ؟!

وندم على ثرثرته أما الطبيب فقال :

ـ عم خليل التمرجى أعتقد أنه رأى القاتل .

ـ حقا ؟

ـ إنه يسكن فى حجرة فوق السطح وكان يمر أمام شقة القتيلة عندما رأى رجلا يغادرها .

ـ أرآه جيدا ؟

ـ لا أدرى .

ـ كان يجب أن يدلى بشهادته .

ـ وقد فعل .

من الذى رآه التمرجى؟ . ولأى درجة تمكن من رؤيته؟ . هل ساوره شك من ناحيته ؟!

* * *

وكان يغادر باب الوزارة عندما شعر بشخص يلاحقه فالتفت وراءه فرأى عم سليمان الفراش. نظر إليه متسائلا فقال الرجل:

ـ عمرو بك، الحق أنى لم أشهد فى التحقيق بكل ما أعرف!

فرمقه فى دهشة فقال الرجل:

ـ كتمت شهادة لو سمعها المحقق لأتعب الأبرياء بلا موجب.

ـ ماذا تعنى؟

فقال الرجل وهو يبالغ فى الأدب:

ـ رأيت حضرتك يوما وأنت تقبل المرحومة فى المصعد!

فهتف:

ـ ماذا تقول؟

ـ رأيتك وأنت تقبلها.

خذلته أعضاؤه فى الواقع ولكنه تماسك بقوة فوق طاقة البشر. وقال:

ـ أنت أعمى بلا شك.

ـ كتمتها خشية أن تدفع بك إلى موطن الشبهات!

فهتف:

ـ أنت أعمى!

فتراجع الرجل قائلا:

ـ لا مؤاخذة يا بك، ما قصدت سوءا قط.

فتراجع بدوره قائلا:

ـ إنك على أى حال تستحق الشكر.

فقال الرجل وهو يمضى:

ـ الشكر لله.

إنه يتمزق إربا. لا أمان ولا سلام ولا قدرة على تحمل مزيد من العذاب.

* * *

قال عمرو:

ـ لا خبر عن الجريمة فى الجرائد.

فقال موظف:

ـ أكبر الأحداث يشغل الصحف أياما ثم يختفى كأن لم يكن.

وقال آخر:

ـ فى رأيى أن النيابة هى التى منعت النشر.

فسأل عمرو:

ـ لماذا؟

ـ هكذا يتصرفون إذا اكتشفوا حقائق يجب إخفاؤها عن القاتل.

وشعر بنظرات تلسع وجهه فالتفت بالغريزة ناحيتها فالتقت عيناه بعينى عم سليمان وهو يحمل القهوة للرئيس. جن بالقهر دقيقة ثم تساءل متى وكيف يشرع فى ابتزاز أمواله؟!. ثلاثة تمنى أن يتخلص منهم، فتاة الحلوانى وصاحب محل الزهرة وعم سليمان، تمنى أن يتخلص منهم ليتغلب على الأرق الذى احتل لياليه المضنية. وتتابعت المعجزات فصدمت سيارة نقل الفتاة الجميلة، وقتل صاحب محل الزهرة فى معركة غادرة مع أحد العمال، أما عم سليمان فقد مات فجأة وهو يعمل فى المقصف.

ولم يكد يتذوق قطرة من الراحة حتى دهمه صوت الرئيس وهو يقول:

ـ متى تبدأ العمل يا سيد عمرو؟!

* * *

وهبطت عليه فكرة من السماء. أوحت إليه بأن البواب ليس بالمالك المناسب للحذاء الأبيض. الحذاء لا يناسبه لا من الناحية الذوقية ولا من الناحية الاقتصادية. الأرجح أن يكون قد تلقاه هدية. فمن هو المهدى ومتى أهداه إليه؟. لعلها فكرة لا تقوم على واقع ولكنها جديرة بالاختبار. ومضى لتوه قاصدا عيادة الأسنان. وفى المصعد قال للبواب:

ـ حذاؤك جميل!

نظر إليه الرجل نظرة جامدة ولم يعلق فعاد يسأله:

ـ جاهز أم تفصيل؟

أجاب الرجل:

ـ ممكن تفصل حذاء مثله عند أمين على بممر الديلمى.

هى إجابة وتخلص من الإجابة معا. قوى سوء الظن به. وكان ممر الديلمى قريبا، ودكان الإسكافى فى مطلعه على اليمين. حيا الرجل وقال:

ـ أريد تفصيل حذاء أبيض ذى سطح بنى.

فأجلسه الرجل على كرسى من القش المجدول وراح يسجل مقاسات قدميه. وفى أثناء ذلك قال له:

ـ رأيت حذاء مثله فى قدمى بواب العمارة رقم ١١ بشارع ٢٦ يوليو فأعجبنى، وهو الذى دلنى عليك.

فقال الرجل بهدوء:

ـ ليس بين زبائنى بواب!

فخفق قلب عمرو سرورا بسلامة تفكيره وقال:

ـ لعله أخذه هبة من أحد زبائنك.

ـ يمكن .

ـ هل الطلب كثير على هذا النوع ؟

ـ من النادر أن يطلبه أحد، وطلبك هذا هو الثالث من نوعه فى العامين الأخيرين .

فسأله باهتمام متصاعد :

ـ والآخران من أى طبقة ؟

ـ أحدهما قارئ والآخر . . .

وتردد تردد من خانته الذاكرة فانحنى فوق دفتر متهرئ وفرّ صفحاته بسرعة وعمرو ينظر من فوق كتفه . وقال الإسكافى :

ـ حسام فيظى . . غالبا موظف . . لا يوجد فى الدفتر إلا العنوان .

وغادر الدكان وهو يحفظ العنوان عن ظهر قلب!

* * *

انبعث إلهام فى صدره بأنه سيرى القاتل وأنه سيجد فيه نفس الشخص الذى اقتحم الإدارة صباح ليلة الجريمة . وما عليه بعد ذلك إلا أن يقابل المحقق ليعترف بين يديه بكل شىء، أو الأفضل أن يحرر رسالة متضمنة لكافة التفاصيل . وكان البيت يقع فى شارع المتولى بمنشية البكرى، وهو شارع سكنى نصف مساكنه عمارات حديثة والنصف الآخر بيوت قديمة من دور ودورين، وليس به من محال عامة سوى فرن وكواء، فهو شارع يشعر الغريب الطارئ بغربته . مر أمام البيت عصرا فرأى فى شرفته فتاة فوق العشرين ودون الخامسة والعشرين، أخذ منظرها بلبه فحلم بسعادة الحياة الزوجية واستقرارها الهانئ . قديما أسرته لطفية بحيويتها وعذوبتها الجنسية وتعلقها الجنونى به لدوافع قدرية مجهولة، أما هذه الفتاة فمثال كامل للرزانة والحياء والصبر والخلق

المتين. وهى زوجة القاتل ولعلها أخته. ولاحظ أن فى دكان الكواء امرأة قميئة عوراء تتابعه باهتمام، واستنتج من سلوكها أنها صاحبة الدكان فأقبل نحوها ـ اكتسابا للوقت ـ وسألها عن بيت حسام فيظى فأشارت إلى البيت وهى تتفحصه بخبث بعينها اليسرى، وقالت:

ـ وتلك أخته التى تجلس فى الشرفة.

لعلها ظنت أنه يحوم حول الفتاة فشكرها وهمّ بالذهاب فقالت المرأة:

ـ أسرة طيبة.

فوافق بانحناءة من رأسه فسألته:

ـ هل تعرفهم؟

فأجاب بالنفى، واقتنع فى ذات الوقت بأن المرأة تقوم بدور الخاطبة.

وحدثته عن حسام ودولت، وأبدت استعدادا طيبا لتقديم أى خدمة شريفة. وقالت له بغتة وهى تغمز بعينها:

ـ ها هو حسام ذاهبا إلى المقهى.

التفت عمرو وقلبه يدق بعنف.

ولكنه رأى رجلا لم تسبق له رؤيته. مضى بدينا أنيقا فاقع البياض غزير الشاب لا يمت بصلة للرجل الذى يبحث عنه. انهارت تقديراته وخاب مسعاه. وأدرك أن البواب ما دله على عم أمين إلا باعتباره أقرب إسكافى، أما سر حذائه هو فما زال سرا، وما زال احتمال أن يكون هدية قائما، وغير مستحيل فى النهاية أن يكون صاحبه.

ورجع إلى النقطة التى منها بدأ.

* * *

لو تنكشف تلك الغمة فيملأ رئتيه بالهواء النقى بعمق وتوبة، ويعزم

جادا على إكمال نصف دينه بالاقتران من دولت فيظى! لقد تجنب الاقتراب من شوارع برمتها كما يتجنب عينى عم سليمان. وثمة نسيان جاحد يسدل أهدابه على لطيفة ومأساتها، وهو الوحيد الذى يحترق فى خفاء بذكرياتها. وفكر ثم فكر، وكتب رسالة مطولة للمحقق استهلها بقوله: «أنا صاحب الخمر والشيكولاتة، وإليك الشهادة الوحيدة التى تنفعك». كتبها بعناية وحشدها بالتفاصيل ولكنه لم يوقع عليها بإمضائه. ولم يرسلها، أجلَّ ذلك حتى يستوفى التفكير فى كافة وجوهها واحتمالاتها. وقال لنفسه إنه لن يذوق للراحة طعما حتى يلقى القبض على القاتل. وتساءل أى بواعث يا ترى دفعته إلى قتلها بعدما ثبت من التحقيق أنه لم تكتشف سرقة وراء الجريمة؟ أما كان الأجدر أن يقتلها هو ـ عمرو ـ وقد توفرت لديه لذلك أسباب وأسباب؟ كان يمقتها بقدر ما كان يحبها، ولم يغفر لها نهمها الجنونى للمال والسلطان وتضحيتها به فى سبيل ذلك. وكان يشد عليها بقوة وهى بين ذراعيه رغبة وحنقا. على أى حال فلا يجوز له أن يمنى النفس بحياة زوجية سعيدة مع دولت فيظى حتى تنكشف الغمة تماما وتهدأ أعاصير الوجود. وذهب من فوره إلى العمارة المشئومة ليكمل علاج أسنانه. وانتهز فرصة هبوط المصعد فصعد إلى الدور الرابع بقوة لا تقاوم. وجد المصباح فوق باب شقة المقاول مضاء. فتح الباب فظهر المقاول وهو يوسع لضيف فتوارى عمرو فى نهاية الطرقة. وسمع حوارا بينهما فقال المقاول:

ـ لا تنس عيد الأضحى.

فأجاب الرجل:

ـ كل عام وحضرتكم بخير.

فقال المقاول:

ـ سنذبح هذا العام بقرة.

فقال الرجل :

ـ ونصنع من جلدها حذاء كلاسيكيا .

فخفق قلب عمرو وشعر بأنه قريب من النصر أكثر مما يتصور . وخرج الضيف فأفلتت من عمرو صيحة فوز . رأى أمامه غريمه دون سواه . القتل المجهول المحوط بالأسرار . وانقض عليه كالوحش وقبض على ذراعيه وهو يصيح :

ـ أنت القاتل !

وذعر الرجل واختفى المقاول مغلقا الباب فضاعف ذلك من وحدة الرجل الغريب وهتف :

ـ أى قاتل !

فلطمه بقوة هدامة وصاح به :

ـ اعترف !

فتمتم الآخر بصوت كالأنين :

ـ رحماك !

ـ أنت الذى قتلت دولت فيظى !

وفطن إلى هفوة لسانه أما الآخر فلم يفطن ، وانهار تماما فقال :

ـ أعترف . . ولكن لا تضربنى .

فدفعه أمامه وهو قابض على ذراعيه بوحشية .

* * *

وفكر طويلا فى موضوع الرسالة دون حسم . وهداه تفكيره إلى وجوب كتابتها على آلة كاتبة ما دام مصرا على إخفاء إمضائه ـ وبالتالى ـ إذ ليس من حسن الفطن أن يرسل خطه إلى المحقق . واقتنع بذلك لحد أنه عزم على شراء آلة كاتبة صونا للسرية اللازمة . وكان يتخبط فى فراغ

مخيف بين صمت الصحف وعينى سليمان حتى اعتقد أن بقاءه فى المدينة حمق ما بعده حمق ولكن أين المفر؟! . وقال له عم سليمان مرة وهو يقدم له القهوة :

ـ لست على ما يرام يا أستاذ عمرو .

فغلى دمه لظنه أنه يطبق عليه الحصار ولكنه قال ببرود وهو يكبح انفعالاته المتطايرة :

ـ بخير والحمد لله .

واشترى فى ذات اليوم الآلة الكاتبة ـ وهو آسف ـ لارتفاع ثمنها . ما أجدره بالتوفير . لا بالتبذير ما دامت فكرة الزواج من دولت تغزو خياله بسحرها . ونظر إلى حذائه الأبيض ذى السطح البنى وابتسم فهو لا ينسى أنه كان المناسبة التى هيأت له التعرف بحسام فيظى وبالتالى بمنية القلب دولت . فما كاد الرجل يغادر دكان عم أمين علىّ حتى قال له عمرو :

ـ فصل لى حذاء مثل حذائه .

فابتسم الرجل وقال :

ـ ندر فى أيامنا الإقبال على هذا الصنف رغم فخامته .

فتردد عمرو قليلا ثم سأله :

ـ من الرجل ؟

ـ حسام فيظى ، موظف ، لا أدرى فى أى وزارة رغم أنه زبون قديم مثل حضرتك !

ـ ومن الفتاة ؟

ـ أخته ، اسمها دولت .

ـ لعلك تعرف عنوانه ؟

فضحك وقال :

ـ ١٤ شارع المتولى بمنشية البكرى .

فحق له أن يأسف لشراء آلة كاتبة، ولكنها اشتراها على أى حال . وكتب عليها رسالته المثيرة، ثم عنونها، ثم أودعها صندوق البريد .

عند ذلك شعر بشىء من الراحة لأول مرة .

* * *

وكان عاكفا على عمله بالإدارة عندما طرق أذنيه صوت وهو يسأل قائلا :

ـ أين الست لطفية؟

رفع رأسه بقوة وفزع فرأى أمامه الشاب المجهول الذى اقتحم الإدارة غداة ليلة الجريمة . وأحدث ظهوره المفاجئ دهشة عامة أما سؤاله فأذهلهم . وتكهرب عمرو من الرأس إلى القدم . ها هو الشيطان الخفى، حتى الحذاء لم يغيره . أين كان، ولماذا جاء، وماذا يعنى بسؤاله؟ وفى لحظات أغلق عم سليمان باب الحجرة ووقف وراءه متحفزا أما الرئيس فسأل القادم :

ـ من أنت ؟

فتجاهل سؤاله وعاد يسأل :

ـ أين الست لطفية ؟

ـ ولم تسأل عنها ؟

ـ ذاك أمر يعنيها وحدها .

ـ ولكن من أنت ؟

فأجاب بحياء :

ـ لا أهمية لذلك .

- ألم تسمع بما وقع للست لطفية ؟

- خير إن شاء الله!

- لم لم تزرها فى بيتها ؟

- لَا علم لى بمكانه!

- ألم تعرف بأنها قتلت منذ عشرة أيام ؟

فارتسم الذهول فى وجهه وتمتم :

- قتلت ؟!

- ألم تقرأ الصحف ؟

- أنا لا أقرأ الصحف!

- على أى حال فالمحقق يرغب فى مقابلتك .

- أنا ؟ لماذا ؟

- طبيعى أن يرغب فى استجواب جميع من كانت لهم علاقة بالفقيدة .

صمت الرجل مليا حتى أفاق بعض الشىء من وقع الخبر ثم قال بهدوء :

- إنى على تمام الاستعداد للقائه .

* * *

ها هو ذا الشبح . ها هو الحلم . جاء يسعى على حذائه الأبيض . أى قتل، وأى مناورة يلعب بها! . وقد استدعى عم سليمان للمواجهة، وعن عم سليمان علمت الإدارة بأنباء الرجل . علمت بأنه يدعى محمود الغر وأنه سواق تاكس . وقد تعاقدت الفقيدة معه - قبل زواجها بعام - لاستغلال تاكس تملكه . وحرصت من بادئ الأمر على سرية الموضوع لكونها موظفة من ناحية ولأنها أخفت صفقة التاكس عن أهلها حتى

لا تسأل عن مصدر المال الذى ابتاعته به، فكانت تلقى السائق فى الجراج. وظل الرجل على جهله بمسكنها ولكنها دلته على مكان عملها ليهتدى إليها فى الطوارئ. ولما وقع الطارئ ذهب للقائها فى الإدارة صباح ليلة الجريمة، فلما لم يجدها اضطر للتصرف بمفرده فسافر بأسرة عربية إلى الإسكندرية ولبث فى خدمتها هناك حوالى الأسبوع أو أكثر. وانتظرها فى ميعاد اللقاء المعتاد ولكنها لم تحضر فذهب إلى الإدارة مرة أخرى لمقابلتها. وتم التحقق من أقواله واختبرت بصماته ثم أفرج عنه!

دار رأس عمرو. ها هى الأمور تتعقد كما لم تدر له فى حسبان. وها هو ينحدر فى تيه. وشد ما ندم على كتابة رسالته المذهلة. ولكن واقعة التاكس حقيقة لا شك فيها. «إنى أحتقر تصرفاتك؟» وكيف استجابت؟.. قالت برزانة مرعبة:

- ليكن رأيك ما يكون ولكنك تحبنى!

فقال بحنق:

- تبيعين نفسك لوحش بسيارة!

- ولكنك تحبنى ؟

فصمت صمتا ذا مغزى لا يخفى فضحكت وقالت:

- لا تغتم بتصرفاتى ولا بزواجى نفسه ما دام قلبى لك وحدك.

وقال لنفسه بأنه قضى على قلبه بأنه ينقسم إلى قسمين، تلك العذابات الجهنمية، التى لم تقتلع من وجدانه تماما حتى وهما يذوبان فى ضوء الأباجورة الأحمر. واستقر حذاء أبيض ذو سطح بنى على السجادة بين الصوان والخوان الحامل للزجاجة والعلبة، وتموجت تهاويل غشاء الجدران الورقى، وتفشت فى الجو هينمات منسالة من

كون مجهول، وتخطت الذروة عندما راحت تغازل يديه بنشوة جنونية وتقول له بدلال «اخنقنى».

* * *

ودخلت أم سمعة الشرفة وهو وحيد يستجدى نسمة من ليل الصيف وقالت له:

ـ ضيوف على الباب.

فسألها:

ـ تعرفينهم؟

ـ كلا، قالوا افتحى فجئت لأخبرك.

فتح شراعة الباب فرأى وجها لم يره من قبل فغاص قلبه. فتح الباب مستسلما فدخل الرجل وتبعه ثلاثة.

اندفع الثلاثة يفتشون وقال له الرجل:

ـ معذرة، تفتيش لابد منه، هاك أمر النيابة!

فسأله بصوت ضعيف:

ـ عم تفتشون؟

ـ آلة كاتبة.

وجيء بالآلة فتفحصها الضابط وقال:

ـ هى التى كتبت عليها الرسالة.

وبسط أمام عينيه الرسالة التى تطوع بإرسالها وسأله:

ـ رسالتك؟

فقال يائسا:

ـ لا علم لى بشيء مما تتحدث عنه.

ـ متى اشتريت هذه الآلة؟

ـ اشتريتها ولم أسرقها ولست مطالبا بتفسير سلوكى!

ـ ستعرض أنت على عمال المحلين اللذين اشتريت منهما زجاجة الكونياك وعلبة الشيكولاطة، فهل أنت مصر على الإنكار؟ ولِم تصر على الإنكار ما دمت بريئا؟

وفى سيارة الشرطة سأل الضابط عما جعله يشك فى أمره فيفتش مسكنه ولكن الرجل ابتسم ولم يجب. وفطن عمرو إلى الخطأ الذى ارتكبه بإرسال الرسالة، فإن كتابتها على الآلة الكاتبة تشى بخوف كاتبها من الاهتداء إليه بمعرفة خطه، مما يرجح معه أن خطه غير بعيد عن متناول التحقيق، وما يثير ـ بالتالى ـ الشبهات حول المتصلين بالفقيدة ومن بينهم زملاؤها فى الإدارة. هكذا استوجب خطؤه تفتيش مسكنه ـ ضمن مساكن الآخرين ـ وهكذا تم العثور على الآلة الكاتبة، وعرف صاحب الرسالة والزجاجة والعلبة.

وقال:

ـ ولكنى برىء وكل كلمة فى الرسالة صادقة.

فقال الضابط ببرود:

ـ علمنا من بادئ الأمر بعلاقتك بالقتيلة!

فاعترضت مخيلته الممزقة صورة عم سليمان ولكنه قال:

ـ اعترفت بذلك فى الرسالة ولكنى برىء.

فقال الضابط بغموض:

ـ وأعجبنى خيالك!

فقال دون أن يتمعن معنىً قوله:

ـ وأطلقتم المجرم الحقيقى!

ـ جميع من اشتبهت بهم أبرياء .

فتساءل بإنكار :

ـ فمن القاتل إذن؟

فأجاب الرجل بهدوء وثقة :

ـ لم يبق إلا أنت!

الحجرة رقم ١٢

يتذكر مدير الفندق بصورة لا تنسى أنه جاءته ذات يوم امرأة لاستئجار غرفة لمدة أربع وعشرين ساعة، وكان الوقت وقتذاك العاشرة صباحا. وحدجها الرجل بنظرة خاصة لندرة من يقصده من الجنس الآخر منفردا، وأنه ليتذكر بصورة لا تنسى أيضاً أنها تبدت لعينيه امرأة شديدة التأثير بقوة بنيانها ووضوح قسماتها وحدة نظرتها وهى تقف أمام الطاولة منتصبة القامة فى معطفها الأحمر وقلنسوتها البيضاء. ولم تكن تحمل بطاقة شخصية، غير عاملة ولا متزوجة، ولكنها على الأرجح مطلقة أو أرملة، اسمها بهيجة الذهبى، قادمة من المنصورة. سجل الرجل ما يلزمه من معلومات ثم عهد بها إلى فراش تقدمها حاملا حقيبتها، حقيبة كبيرة الحجم فوق المألوف، فقادها إلى الحجرة رقم ١٢ بالفندق الصغير.

رجع الفراش بعد نصف ساعة بوجه متعجب فسأله المدير عما وراءه فأجاب بأن المرأة غريبة الأطوار.

ـ ماذا تعنى؟

أجاب بأنها طالبته بأن يطبق حشية الفراش والغطاء والملاءة وأن يودعها ركن الغرفة حتى يجىء الليل أما السرير نفسه فأمرت بإخراجه من الحجرة معتذرة بأنها لا يغمض لها جفن طالما أنه يوجد تحتها فراغ يتسع لشخص قد يختبئ فيه. فقال لها إن مخاوفها لا تقوم على أساس

وإن الفندق لم يقع به حادث واحد منذ نشأته ولكنها أصرت فأذعن لمشيئتها . .

ـ كان عليك أن ترجع إلىّ أولا .

فاعتذر بأنه لم يجد فى طلبها ـ رغم غرابته ـ خروجا على التعليمات الواجب الالتزام بها فى الفندق ، ثم واصل حديثه فقال إنها أمرته بأن يفتح صوان الملابس على مصراعيه وأن يبقيه كذلك فأدرك من توه أنها تخاف أن يغلق فى غيبة منها على غريب يتربص فصدع بأمرها فى تسليم باسم .

ـ العجيب أنها تبدو قوية وجريئة . .

وتفكر الرجل مليا ثم سأله :

ـ هل وهبتك بقشيشا؟

ـ نصف جنيه بالتمام والكمال . .

ـ واضح أنها غير طبيعية ولكن لا أهمية لذلك . .

فقال الفراش :

ـ وكنت مارا أمام حجرتها المغلقة فى طريقى إلى المغسل فسمعت وراء الباب صوتا يتكلم بحدة وحرارة . .

ـ ولكنها بمفردها . . ؟

ـ رغم ذلك كانت تتكلم بحدة ويرتفع صوتها تدريجيا .

ـ كثيرون يفعلون ذلك ، ليس بالضرورة أن يكون مجنونا من يخاطب نفسه . .

فهز الرجل رأسه ولم ينبس فعاد المدير يسأله :

ـ هل وضح لسمعك شىء مما كانت تقوله ؟

ـ كلا ، عدا عبارة واحدة وهى «لا يهم» . .

وأشار المدير إشارة حاسمة إعرابا عن رغبته فى إنهاء الموضوع ثم قال للفراش وهو يمضى :

ـ مزيدا من الانتباه فهذا واجب على أى حال .

وقصف الرعد فنظر المدير إلى السماء من نافذة زجاجية فرآها ملبدة بالغيوم، وكان الجو شديد البرودة والمطر متوقعا بين آونة وأخرى . وعند تمام الواحدة بعض الظهر تلفنت له الحجرة ١٢ :

ـ ممكن أطلب غداء ؟

ـ لا يوجد مطعم بالفندق ولكن يوجد مطعم بالشارع ، طلباتك يا فندم؟

ـ تورلى ، أرز بالخلطة ، مع كيلو كباب مشكل ، تشكيلة سلطات ، رغيف بلدى مجمر ، عيش سراى ، برتقالتان . .

أمر المدير بإحضار المطلوب ولكنه دهش لكمية الطعام المطلوبة ، خاصة اللحوم، وهى تكفى وحدها لستة أشخاص .

وقال لنفسه إنها مصابة بجنون الخوف والنهم .

ـ محتمل أن تغادر الفندق عصرا وسأجد فرصة لإلقاء نظرة داخل الحجرة .

وجاء الطعام، وبعد ساعة رجع خادم المطعم ليأخذ الصينية والأطباق . ولم يستطع المدير مقاومة رغبة ملحة فى النظر إلى الأطباق ، وجدها فارغة تماما إلا من بقايا عظام وصلصة متجلطة . وقرر أن يتناسى الموضوع كله ولكنه وجد المرأة ـ صورتها ونوادرها ـ تطارده وتلح عليه . لا يمكن القول بأنها جميلة ولكنها ذات سطوة كالجاذبية ، وبها شىء يخيف وأشياء تثير حب الاستطلاع والإذعان ، ومع أنه رآها اليوم لأول مرة إلا أنها تترك انطباعا بالألفة التى لا تكون إلا للوجوه المستقرة فى أعماق الذاكرة من قديم .

ورأى رجلا وامرأة قادمين نحوه، وسأله الرجل :

ـ هل السيدة بهيجة الذهبى تقيم هنا ؟

فأجاب بالإيجاب، واتصل بالمرأة، فطلبت السماح للقادمين بالصعود إلى حجرتها، وكان واضحا أن القادمين من الصفوة، من الناحية المادية على الأقل. واندفع الهواء فى الخارج بقوة رقصت لها القناديل المعلقة فى مدخل البهو الصغير. وسرعان ما قدم ثمانية أشخاص ـ أربعة رجال وأربع نساء ـ فتكرر السؤال :

ـ هل السيدة بهيجة الذهبى تقيم هنا ؟

وتم الاتصال وجاءت الموافقة فصعدوا بجلال ـ كانوا على مستوى السابقين ـ إلى الحجرة رقم ١٢ أصبح الزوار عشرة. أقارب من أسرة واحدة، أو أصدقاء، أو أقارب وأصدقاء، ولكن لا شك أن بهيجة سيدة غير عادية.

ـ ترى لم اختارت فندقنا الصغير؟

ودب النشاط فى كافتيريا الاستراحة وحملت إلى فوق أقداح الشاى، وشغلته بعض الوجوه فى المجموعة الأخيرة فظن أنه سبق له رؤيتها، ولكنه قال لنفسه إن خير ما يفعله أن يغسل مخه من شئون بهيجة هانم، وأنها غدا ستكون ذكرى من مئات الذكريات الضائعة التى يجيش بها صدر الفندق.

ورأى أمامه سيدة فى الخمسين غاية فى الرزانة والوقار، سألت :

ـ هل السيدة بهيجة الذهبى هنا ؟

ولما أجاب بالإيجاب قالت :

ـ بلغها من فضلك أن الدكتورة موجودة.

واتصل بالمرأة فسمحت لها بالصعود، وأذعن لرغبة ملحة طارئة فسأل الدكتورة قبل أن تغادره :

ـ ما تخصص حضرتك ؟

فأجابت وهى تذهب :

ـ طبيبة مولدة .

لاحظ أنها قدمت نفسها بصفتها المهنية وبلا ذكر الاسم، فهل هى تزور المرأة بهذه الصفة؟ . . هل المرأة تعانى من مرض نسائى؟ . . أهى حبلى؟ . . ولم يستطع الاسترسال فى أفكاره إذ جاءه رجل بدين قصير متجهم الوجه فقدم نفسه بصفته المقاول يوسف قابيل وطرح السؤال الذى يتكرر :

ـ هل بهيجة هانم الذهبى هنا ؟

وعقب الاتصال التليفونى المعتاد سمح للرجل بالصعود، والمدير يودعه بابتسامة ساخرة حائرة. ورجع أحد فراشى الفندق من مشوار وهو يرتعد من البرد داخل جلبابه البلدى السميك فقال إن الظلام يتراكم فى أركان السماء وأن النهار سينقلب ليلا عما قليل، فألقى المدير نظرة من النافذة الزجاجية ولكنه كان يفكر بامرأة الحجرة ١٢، المرأة الغامضة جلابة الضيوف، وخيل إليه أن روحا نفاثة للإثارة والقلق تتسلل فى أنحاء الفندق مذ قدمت، وأنه يشعر بها تتسلل إلى زوايا نفسه موقظة بها أحلام المراهقة وأبهة الآمال الدنيوية الدسمة. وانتبه من استغراقه على صوت يسأل :

ـ بهيجة هانم الذهبى هنا ؟

رأى رجلا ضخما يرفل فى جبة وقفطان، طربوشه جانح إلى الوراء، وبيده مظلة رمادية، قدم نفسه قائلا :

ـ بلغها أن سيد الأعمى الحانوتى قد جاء .

انقبض صدر المدير، انكمشت أعضاؤه، لعن الرجل والمرأة معا، ولكنه قام بواجبه فاتصل بها، ولأول مرة يتلقى جوابا مخالفا، فقال للرجل :

ـ انتظر حضرتك فى الاستراحة .

ماذا جاء يفعل؟ ولم لا ينتظر فى الخارج؟ لقد عمل فى الفندق زهاء نصف قرن فلم يشهد مَثيلا لما يحدث اليوم ، وأخوف ما يخاف أن يهطل المطر فيضطر الفندق إلى إيوائهم وقتا مجهول المدى ، وبخاصة رجل الموت ذاك ؟!

وجاء زوار جدد ، جاءوا متفرقين ولكن تباعا ، صاحب معرض أثاث وبقال وقصاب وصاحب محل عطور وأدوات زينة وموظف كبير بمصلحة الضرائب ورئيس مؤسسة وصحفى معروف وتاجر جملة للأسماك وسمسار شقق مفروشة ووكيل شخصية عربية من أصحاب الملايين ، وظن المدير أن المرأة ستنقل الاجتماع إلى الاستراحة ولكنها أشارت بالسماح لهم بالصعود فصعدوا واحدا فى أثر واحد . وحملت كراسى جديدة ومضى الفراشون بالشاى ، وتساءل المدير ترى كيف يجلس الزائرون ، هل يربطهم تعارف سابق : وماذا جمعهم على وجه التحديد؟ . واستدعى شيخ الفراشين وسأله عن ذلك فأجاب الرجل :

ـ لا علم لى بالداخل ، الأيدى تتسلم الكراسى والشاى من زاوية الباب ثم تغلقه فورا . .

فهز الرجل منكبيه وقال لنفسه إنهم ما داموا لا يشتكون فلا مسئولية علىّ .

وإذا بسيد الأعمى الحانوتى يقبل نحوه فيقول :

ـ أرجو أن تذكر الهانم بأنى فى الانتظار !

فقال المدير بجفاء :

ـ وعدت بأن تستدعيك فى الوقت المناسب .

ولم يتحرك الرجل فتلفن للمرأة ليتخلص منه ثم ناوله التليفون بناء على رغبتها فيما بدا ، فقال سيد الأعمى :

ـ يا ست هانم العصر فات ونهار الشتاء قصير . .

وأصغى إلى السماعة مليا ثم أعادها ورجع إلى الاستراحة غير مرتاح، والمدير يلعنه من صميم قلبه، ويحمِّل المرأة مسئولية استدعائه إلى الفندق، ويرمق باب الاستراحة بنفور وتقزز. ونزل بعض النزلاء فى طريقهم إلى الخارج، فأبدوا للمدير ملاحظات عن الحجرة ١٢ المقلقة للراحة فقال الرجل معتذرا:

ـ يوجد بها زوار وسيذهبون عاجلا أو آجلا، لن يبقى أحد منهم فى الليل . .

بات يخشى أن تدفعه مسئوليته إلى الصدام معهم وهم من الصفوة القوية، وضاعف من كآبته صفير الرياح فى الخارج وروح الأسى التى تغشى الطريق. ورغم ذلك تراءى عند مدخل الفندق جماعة من الرجال والنساء، أقبلوا نحوه فى معاطفهم فغاص قلبه فى صدره، وبادرهم وهو لا يدرى:

ـ بهيجة هانم الذهبى؟

فضحك أحدهم وقال:

ـ أبلغها من فضلك أن مندوبى جمعية إحياء التراث قد جاءوا.

واتصل المدير بالمرأة فلما طلبت السماح لهم قال لها:

ـ عددهم عشرة يا هانم وتحت أمرك فى الدور الأرضى استراحة تتسع لأى عدد!

ـ ولكن فى الحجرة متسعا!

وصعد المندوبون والمندوبات والرجل يهز رأسه فى حيرة. سيقع الصدام عاجلا أو آجلا، سيتفجر غضب السماء فى الخارج، سيتمخض ذلك التكتل الشاذ فى الحجرة ١٢ عن شىء غير سار. وحانت منه التفاتة نحو الاستراحة فرأى سيد الأعمى يزحف نحوه فنقر بأصابعه على

سطح الطاولة بعصبية، أوصله بالمرأة قبل أن يفتح فاه، سمع شكواه ثم سمع إذعانه، وتركه يعيد السماعة بنفسه، ولكن الرجل قال له وهو يهم بالذهاب:

ـ الانتظار بلا عمل ممل جدا..

فغضب المدير، وكاد يوبخه لولا أن المرأة اتصلت به طالبة إيصالهم بالمطعم، واستمرت المكالمة دقائق قبل أن تنقطع، وتساءل هل يبقون حتى العشاء؟ وأين يتناولون عشاءهم، كم يود أن يعاين الحجرة بحالتها الراهنة، إنه منظر يفوق الخيال، منظر جنونى بلا أدنى ريب.

ولم يقف الطوفان عند حد فجاء نفر من أساتذة الجامعة ورجال الدين، أمست المناقشة عقيمة، تركهم يصعدون، بدا الأمر مزاحا كابوسيا، وجاء رجل غامض فصعد دون أن يمر به وقد ناداه فلم يلتفت إليه، وتبعه فراش ولكنه توقف عندما رآه يدخل الحجرة ١٢. وشعر المدير بأنه وحيد وبأنه يفقد سيطرته القانونية على المكان، وبأن شيطان الأحلام البهيمية يطرق بابه بعنف. وفكر بأن يشاور شيخ الفراشين ولكن ظهر له رجل ما إن رآه حتى تشهد فى ارتياح، تصافحا وهو يقول للقادم:

ـ جئت فى وقتك يا حضرة المخبر.

فقال المخبر بهدوء:

ـ أطلعنى على السجل..

ـ تحدث أمور غريبة هنا.

راح الرجل يراجع بعناية الأسماء ويدون بعض الملاحظات فقال المدير:

ـ أراهن على أنك جئت من أجل الحجرة ١٢.

ـ هه؟

ـ الأمور تجرى فى شذوذ جنونى .

ـ كل ما يقع ضمن الطبيعة فهو طبيعى!

ثم غادره وهو يقول :

ـ إذا طلبنى التليفون فإنى فى الحجرة ١٢!

ذهل المدير، ولكنه اطمأن نوعا ما فى الوقت نفسه، فما يحدث إنما يحدث بعلم الحكومة وتحت سمعها وبصرها، وتذكر أنه فكر بمشاورة شيخ الفراشين، وهمّ بالضغط على الجرس عندما رأى سيد الأعمى زاحفا نحوه ففقد أعصابه وصاح به :

ـ قالت لك أن تنتظر حتى تستدعيك .

فابتسم الرجل بخنوع المعتاد للانتهار وقال :

ـ ولكن الانتظار قد طال . .

ـ انتظر بلا مناقشة وتذكر أنك فى فندق لا قرافة!

فرجع الرجل متصبرا، وتذكر المدير شيخ الفراشين فاستدعاه وسأله :

ـ كيف تجرى الأمور فى الحجرة ١٢؟

ـ لا أدرى يا سيدى ولكنها تضج بالأصوات . .

ـ كيف يتواجدون معا وهى لا تتسع لهم ولو جلس بعضهم فوق بعض؟

ـ علمى علمك ولكن على أى حال فإن الضابط بالداخل أيضا . .

وذهب الرجل فنظر المدير من النافذة فرأى الليل جاثما فى الفضاء، وقد أضاءت المصابيح فشعت أنوارها وانية خلال الجو المشحون بالرطوبة العاصف بالرياح المزمجرة، وجاء طابور من خدم المطعم يحملون الصوانى المكتظة بالأطعمة، فازداد عجبه، وقال لنفسه إنه لا يوجد بالحجرة إلا خوان واحد، فأين تصف الأطباق، وكيف يتناولون

الطعام؟ وأخبره أحد الفراشين أن باب الحجرة لم يعد يفتح، وأن الأطعمة أدخلت من شراعة الباب، وأن الضحكات الصاخبة تجتاح الدور كله، وأصبح المشهد كله يعز على التصديق.

ورجع الفراش بعد نصف ساعة ليؤكد له أن القوم يسكرون، فقال له:

ـ لم أر زجاجة واحدة!

ـ لعلها هُرِّبت فى الجيوب، إنهم يغنون ويصرخون ويصفقون، تلك حال سكر وعربدة، وفسق أيضا فالنساء هناك لا يقلون عن الرجال عدا..

ـ والمخبر؟

ـ سمعت صوته يغنى «الدنيا سيجارة وكاس»..

وقصف الرعد فى الخارج فقال المدير لنفسه «جائز جدا أنى أحلم وجائز أنى جننت». وإذا بجماعة من عامة الشعب ـ تنطق وجوههم وملابسهم بشعبيتهم ـ قدموا، وسأل سائلهم:

ـ هل السيدة بهيجة الذهبى تقيم هنا؟

فابتسم المدير يائسا، واتصل بالمرأة، فرجته أن يجعلهم ينتظرون فى الاستراحة وأن يقدم لهم المشروبات، فأشار الرجل لهم نحو الاستراحة فأمر بتقديم الشاى لهم، فامتلأت الاستراحة وازداد سيد الأعمى قلقا.

وجعل المدير يبتسم يائسا ويغمغم:

ـ لم يعد الفندق فندقا، ولم أعد مديرا، لم يعد اليوم من الزمان، فليرقص الجنون ما شاءت له اللحوم والخمور..

وبدأ تساقط المطر، وأرعدت السماء، ولمع الأسفلت عند مدخل الفندق بأضواء المصابيح ودغدغة المطر، وتتابع دبيب الأقدام، وارتفعت صيحات غلمان مهللة، ولجأ عابرون إلى عنق المدخل، وتوالت

الضربات المرجفة فوق زجاج النافذة. غادر مكانه إلى مقدم المدخل فقلب وجهه فى السماء المظلمة ثم نظر إلى الأرض فرأى السيل المنهمر ينصب عليها كالحصا ويجرف منحدراتها كالطوفان. لقد تلبد واحتدم ثم انفجر.

ـ إنه مطر لم يسقط نظيره منذ جيل على الأقل.

وتذكر سيلا شبيها بهذا حفر ذكراه فى رأسه منذ صباه. تذكر كيف انقطعت المواصلات وسدت الحوارى وغرقت الحجرات تحت الأسقف المتهرئة. ورجع إلى مكانه فالتزمه حرصا على السجلات والخزانة ولكنه أصدر أوامره بتشديد المراقبة فى الحجرات وفوق السطح. واستدعى شيخ الفراشين وسأله:

ـ ما أخبار الحجرة ١٢ ؟

فلوى الرجل شفتيه وقال:

ـ تواصل الغناء والضحك، إنهم مجانين. .

ولمح على باب الاستراحة سيد الأعمى فصاح به بأعلى صوته:

ـ ارجع إلى مكانك.

استأذنه الرجل بإشارة من يده فصاح به مرة أخرى:

ـ ولا كلمة. .

وجعجع الرعد كانفجار القنابل وانهل المطر فى سرعة وغزارة جنونيتين فقال لنفسه بقلق إن الفندق قديم لم يشيد بالخراسانة المسلحة، وأن الليل ينذر بالمتاعب.

وجاءه فراش وقال:

ـ تصاعدت الشكوى من الحجرة ١٢ من رشح السقف والبلل!

فقال بحنق:

ـ سكت الغناء والضحك ؟ . . فليغادروا الحجرة!

ـ ولكنهم لا يستطيعون!

فصرفه واستدعى رئيس الفراشين وسأله فيما قال الرجل فقال :

ـ الحجرات كلها ترشح ، سأجند الفراشين لسد الثغرات فوق السطح بالرمال . .

ـ والحجرة ١٢ ؟

ـ لقد انحشروا ، انزنقوا ، امتلأت بطونهم فانتفخت ، تعذر فتح الباب ، تعذرت الحركة . .

اجتاح الهياج الكونى الفضاء فى الخارج ، أما فى الداخل فقد دبت حركة نشاط شاملة وانطلق الفراشون بأكياس الرمال . وحدثت مفاجأة غير متوقعة ، إذ هبَّ المنتظرون فى الاستراحة متطوعين للاشتراك فى العمل . راقب المدير ذلك بارتياح ، وارتاح بصفة خاصة لتخلف سيد الأعمى .

وبعد نصف ساعة رجع شيخ الفراشين ليطلعه على سير العمل ، قال :

ـ إنهم يعملون بهمة عالية . .

ثم بعد تردد :

ـ أما أصحابنا فى الحجرة ١٢ فحالهم سيئة ، وهى تزداد بتقدم الوقت سوءًا على سوء . .

وغضب المدير . عصف به الغضب وكأنما عصف به فجأة . عصف بل بعد توتر عنيف حصره طيلة اليوم . تملكه الغضب أعصابا ولحما ودما . جن واندفع ينشد المزيد من الجنون . صاح بشيخ الفراشين :

ـ اسمع ، احفظ ما أقول . .

فحملق الرجل فى وجهه بخوف طارئ فصاح بتصميم :

ـ أهملوا الحجرة ١٢ بجميع من فيها!

ـ سيدى، الرجال يصرخون والنساء يبكين . .

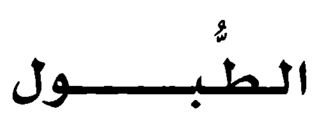
فزمجر كالوحش:

ـ ركزوا على السطح فوق حجرات النزلاء أما الحجرة ١٢ فأهملوها بجميع من فيها . .

تردد الرجل مقدار ثانية فصاح وهو يزداد توحشا:

ـ نفذ تعليماتى حرفيا، وبلا تردد . .

والتفت نحو النافذة الزجاجية ينظر إلى الخارج فرأى الزوبعة تتلاطم فى قلب الليل وتزداد عنفا ولكنه كان قد تخفف من عبء ثقيل واسترد الثقة وصفاء الذهن . .


الطُّبـــــول

دق جرس المنبه فى رنين متصل فدبت فى الأسرّة حركة شاملة. ثمة تثاؤب هنا وهناك يند وسط همهمات كطنين النحل وضحكات طافحة بالبشر وتأوهات مرحة. وفتحت النوافذ فتدفق الفجر الغامض متسربلا بنسيم ندى مفعم بشتى الطيوب وأنفاس الطبيعة النقية. وارتفع صوت القائد دسما واضح النبرات يقطع بأنه سبقنا إلى الاستيقاظ منذ أمد وتأهب لاستقبال اليوم الخطير، قال:

ـ السرعة والنظام والجد، لديكم ثلث ساعة حتى تجتمعوا حول مائدة الإفطار.

وانتشرت الحركة فى نشاط بهيج. أقيدت الأنوار فى المغاسل، طرقعت الشباشب فوق البلاط، سالت المياه من الصنابير، وهدرت السيفونات، وأزت الحلاقات الكهربائية.

ـ الفجر يبشر بجو طيب.

ـ يجب أن نقطع شوطا ملحوظا قبل أن ترتفع الشمس.

ـ لكن الظهيرة آتية والصيف لا قلب له.

سرعان ما امتلأت الكراسى الخشبية حول المائدة المستطيلة ببهو الطعام. استقرت الجاكتات الكاكية والبنطلونات القصيرة فوق الأجساد الرشيقة. عقد كل حمالة صفارته حول عنقه وأرسى عصاه إلى طرف المائدة جنب زمزميته وحقيبته. وصب الشاى فى الأقداح وتخاطفت

الأيدى الفطائر والجبن والعسل الأسود. وتتابع التمطق فى سرعة تنذر بتوقعات متربصة. والحق أن القائد لم يمهلنا طويلا، كأنما أراد أن يمتحن مرونتنا أو أن يذكرنا بسلطاته منذ البدء، فنفخ فى صفارته مقدراً ربع دقيقة. نهضنا عجلين، ركبنا الحقائب فوق الظهور، وعقدنا الزمزميات بالأكتاف، وتناولنا العصى، وهرعنا إلى الفناء. انتظمنا طابوراً طويلاً فى ظلام شامل عدا شفافية لا تكاد تُرى فى الأفق الشرقى.

ومثل شبحه أمامنا بقامته الطويلة ومضى يقول:

ـ لتكن كل رحلة جديدة خيرا من سابقاتها.

فقلنا فى نفس واحد:

ـ آمين.

فعاد يقول:

ـ لنكن مثالا طيبا للآخرين.

فكررنا فى صوت واحد:

ـ آمين.

ـ ولنستفد من كل خطوة وكل تجربة.

ـ آمين.

ـ سيروا على بركة الله.

ـ آمين.

ونفخ فى الصفارة والديكة تصيح فتكونا فى أربعات، واتخذنا خطوات «محلك سر» حتى احتل مكانه على رأس الطابور، ثم بدأ السير فسرنا وراءه على دقات الطبول، وتبعتنا على الأثر عربة يجرها جواد تحمل المطبخ والمستشفى. سلمنا الفناء إلى ممر طويل ضيق محصور بين جدارين مرتفعين تفوح منه رائحة الكلس وعطن البول وتظلل نهايته سعف نخلات مغروسة فى الجانبين. شاب مشيتنا

الرياضية حذر شديد لما توقعناه من وجود روث دواب أو قاذورات آدمية إذ أنه رغم الحيطة والتفتيش يتسلل إلى الممر فى هدأة الليل أناس لممارسة حرياتهم بلا حياء. سرنا فى حذر حتى خرجنا إلى الخلاء فلفحتنا نسمات نقية مطلولة. ولم نكد نقطع خطوات حتى ترامى إلينا صوت السواق وهو يحث الجواد على السير ويفرقع بسوطه فى الهواء. وتنبه قائدنا إلى ذلك فصاح بصوته الدسم:

- قف..

فضربنا الأرض متوقفين فقال بنبرة آمرة:

- ١ و٢ يذهبان للاستطلاع وتقديم ما يلزم.

انفصل الزميلان من الطابور فرجعا إلى موقف العربة. أدركنا من حوارهما أن حجرا اعترض العجلة اليمنى وأنهما يتعاونان على زحزحته. وتساءل قائدنا محنقا:

- متى يبلغ معسكرنا كماله المنشود؟!

وعاد الزميلان إلى الطابور فنفخ القائد فى صفارته واستأنف الطابور سيره. سرنا أشباحا ذائبة فى ظلام، وفى السماء نجم واحد. وكنا نحب ظلمة الفجر، لأنها سريعة الزوال، ولأننا نطمئن إلى الاختفاء فى غلالتها فنخرق تقاليد الطابور الصارمة بالمداعبات والملاعبات الخفية، سعداء بشقاوتنا وعبثنا كاتمين ضحكاتنا فترتعش فوق الشفاه بلا صوت. فى ظلمة الفجر يتلقى سيئ الحظ ضربة عصا فى ساقه أو قرصة فى ذراعه أو نواة نبقة فى قفاه، ولما كان الفاعل مجهولا فإنه ينتقم من أى كان وبأى وسيلة تتفق له. لم تكن تلك الشقاوة مريحة ولكنها كانت متعة محبوبة، ولا تتم الرحلة إلا بها، ولذلك كنا حريصين على احترام سريتها لنضمن استمرارها. ونهنأ - رغم انزعاجنا - بها، فالجدية المثالية الواجبة شعار نردده ونلتزم به ولكن يبدو ألا مفر من التمرد عليه بين

الحين والحين. ومـا يدرى تكوين من تكوينات الطابور الرباعـيـة إلا ورشاش سائل يبلله فى مواضـع متفرقة من أجسام أصحابه. وتبين لهم من رائحته أنه بول! . كاد النظام يختل. وضاعت الضحكات المكتومة فى هدير غـاضب لم يتوقعه أحـد. تجاوزت الدعابة حدود الاحتمال وانفجر صوت خشن بلا مبالاة:

ـ عليكم اللعنة . .

فصاح القائد غاضبا:

ـ قف.

توقفنا عن السير. انقلبت الدعابة علينا هذه المرة وأنذرت بالنكد وتساءل القائد:

ـ من الوقح ؟!

فصاح الآخر متحديا:

ـ كلب بال علينا.

فصرخ القائد:

ـ الويل لكم.

ولكن سبقته الأحداث فندت صرخات واختلطت أشباح ونشبت معركة عمياء. تبودلت اللكمات والركلات واللعنات ومضى القائد يهدد وينذر فى الهواء. اشترك كل واحد منا فى المعركة، هاجما أو مدافعا، بلا حساب ولا حذر وكأننا نقاتل المجهول فى الأركان الأربعة. اندثر لحظتئذ الود الجامع بيننا وتلاشت روح الزمالة العتيدة، وحلت محلهما وحشية كاسرة تنفث حقدا وشهوة طاغية للأذى، كأنها قوة مدمرة تفجرت فى قلب الظلام. تواصل الضرب بلا رحمة وصمت قائدنا كأنما قد ترك لأيدينا وأرجلنا مهمة إنزال العقاب الشامل بنا. وما ندرى إلا والظلمة تخف وتتهافت، ومعالم الدنيا تطل علينا من حولنا،

ورقعة الأفق الشرقى تبتسم ببهجة الضياء. عند ذاك تراءى المتعاركون، رأى كل وجه زميل أو صديق فعقد الحياء أيدينا وتطايرت انفعالاتنا السوداء وتراجعنا بوجوه أسيفة وقلوب منكسرة، وجعلنا نجفف عرقنا ونضمد جراحنا ونتبادل نظرات حسيرة، متجنبين النظر نحو قائدنا الواقف كتمثال للغضب والازدراء. وساد صمت ثقيل مشحون بالندم. وتلقينا أول شعاع للشمس بوجوه كالحة.

وراح القائد ينقل عينيه من شخص لآخر، ثم قال:

- بداية على أى حال جديرة بكم.

لم ينبس أحد بكلمة. ولا انبرى أحد للدفاع يستوى فى ذلك الظالم والمظلوم. وعاد القائد يقول:

- إن زيكم الرفيع ليخجل منكم.

وهز رأسه فى أسى ثم تساءل:

- هل لدى المذنب منكم الشجاعة للاعتراف؟

ولما لم يسمع صوتا قال:

- ليس من مبادئنا إلغاء رحلة بدأناها ولكن لن يمر ذنب بلا عقوبة تناسبه.

مضى إلى موقفه، نفخ فى الصفارة، هوت المطارق على الطبول، تحرك الطابور فى ضوء الصباح الباكر. انتقلنا من الصحراء إلى المدينة فقابلتنا طلائع العمال والباعة. وتبعا لتقاليدنا رحنا ننشد الأناشيد متناسين المعركة وآلامها. ولم يكن شيء يؤثر فينا مثل أناشيدنا الجميلة المتغنية أبدا بالبطولة والمجد والأخوة، فسحرها يخاطب من القلوب والسرائر. ومر بنا السابلة بلا اهتمام، وقليلون من تابعونا بنظرات محايدة، أما الغلمان الذين يهرعون وراءنا فلم يكن قد استيقظ منهم أحد بعد. وزالت آثار المرارة تماما، وانتصر الشباب بقوته الخارقة،

وأنعشتنا الأناشيد، فعدنا أهلا للرحلة الطويلة الشاقة أمامنا. وسيطر علينا الإيمان بما نفعل وبما نقول، بالمثل التى نستظل بها، والمجد الذى نمضى إليه، والقوة التى سنحقق بها المعجزات. وكنا سعداء، رغم الجهد المتوقع والنظام الصارم والعقوبة المتربصة كنا سعداء. وسرنا وسرنا، وأنشدنا وأنشدنا، على دقات طبول لا تتوقف، حتى نفخ القائد فى الصفارة فتوقفنا وسط الضحى. وهتف القائد بوجه لم يزايله الغضب:

ـ استراحة.

غسلنا وجوهنا فى مقهى قريب ثم قصدنا العربة فتناولنا شراب الليمون وبعضا من البسكوت. وكان الطريق غاصا بالمارة والسيارات والعربات، وحرارة الشمس تحرق الرءوس وتستدر العرق. وتبادلنا الأحاديث فى صفاء كأن لم تكن بيننا معركة، وتذكرنا ملابساتها بقلوب ضاحكة، ولكننا لم نخل من قلق من ناحية عواقبها.

ـ هل تمر بسلام؟

ـ بعيد ذلك كل البعد.

ـ حبس انفرادى أو صيام نهار كامل.

وطوينا الموضوع بقرفه لنواجه ما هو أهم فى حاضرنا، فهدف الرحلة يظل مجهولا لا ينبئ عنه قائدنا حتى نستدل عليه من خط السير. وكنا معسكرين عند مشارف الميدان، ولكن الميدان مفترق طرق ملىء بالاحتمالات.

ـ أنتجه جنوبا أم نمضى شمالا؟

ـ الجنوب يعنى الأهرام.

ـ أهرام الجيزة أم سقارة أم دهشور؟

ـ ولا تنس الفيوم.

ـ والشمال يعنى هليوبوليس أو عين شمس.

ـ وهناك الصحراء فى الجنوب والشمال معا.

ـ وهى أسوأ الاحتمالات.

ونفخ القائد فى الصفارة فتوالت دقات الطبول كالنداء الملح فهرعنا إلى الطابور. وما كدنا نتوسط الميدان حتى أدركنا أننا نتجه نحو الجنوب، فعرفنا الهدف بلا تحديد، ولن يتحدد حتى نبلغ هضبة الأهرام. مضينا بأقدام نشيطة وحيوية رائعة، تستغرقنا الأناشيد فلم نشعر بمرور الوقت. لذلك دهشنا عندما دعينا للتوقف لتناول وجبة الغداء وتبين لنا أن الساعة تمت الثانية بعد الظهر. عسكرنا على حافة حقل مزروع بالجرجير. نزعنا الأحذية وغسلنا أقدامنا فى جدول ماء. فرشنا الحصر وجلسنا لتناول الغداء بعد أن جاء كل منا بتموينه من العربة وهو عبارة عن طبق يحوى بامية وقطعة من الضأن ومغرفة من الأرز وموزة. أنسانا تناول الطعام همومنا الصغيرة كما أنسانا الوقت فأثملتنا لذته الموشاة بأطايب الأحاديث والنوادر. ولما فرغنا من الطعام استلقينا على ظهورنا لنستمتع بالراحة فى الفترة القصيرة المخصصة للقيلولة. وداعبنا النعاس ونحن مستسلمون لأحلام اليقظة، وكدنا نستسلم للنوم لولا أن همس هامس:

ـ انظروا..

تحولت الأنظار إلى الحقل الذى يغوص تحت مستوى الطريق بمتر فرأينا زميلا يتوارى وراء عربة مقلوبة وهو يحتضن كائنا لم نره ولكنا رأينا جانبا من فستانه هفا به الهواء فتحرك كالعلم.

ـ أى جرأة!

ـ سيجلب لنا متاعب جديدة.

وتطوع زميل للذهاب إليه لتحذيره. وسرت شهامة التطوع إلى

آخرين فمضوا فى أثره. وتطلعت الرءوس إلى العربة المقلوبة باهتمام وإشفاق وتوتر، وبحثت أعين عن القائد حتى عثرت عليه نائما على سريره السفرى وراء عربة التموين. ورأينا الزملاء وهم يتحاورون عند العربة المقلوبة ولكننا لم نسمع كلمة مما يدور فقال أحدنا:

ـ إنهم يقنعونه بالعودة.

فقال آخر ضاحكا:

ـ أو بالاشتراك معه!

وجرت الفتاة إلى مبنى من البوص غير بعيد فاختفت داخله دقيقة ثم ظهرت مرة أخرى فى مدخله وهى تتوسط عددا من الفتيات! وهرع الزملاء إلى مبنى البوص فدب نشاط محموم فينا جميعا، وثبنا قائمين، وزحفنا نحو المبنى كجيش من المجانين. وكانت الشمس تصب على المبنى دفقات حامية من أشعتها فيكاد أن يشتعل ولم يبال أحد بالحر ولا بالجو الخانق، وفاح المكان برائحة عرق آدمى حريف، واضطربت أركانه بالصحة والعافية وأنفاس الشباب الملتهبة. وشحنت بالعربدة المكتومة والزفرات الضاحكة والأطوار المستهترة. وفى حمأة الطرب المشبوب تردد صوت ماجن بغناء، رقص مستهتر متهتك، واشتبك اثنان فى معركة مازحة. وعدنا واحدا فى أثر واحد، وارتمينا فوق الحصر مستسلمين لراحة عميقة. وما لبثت أن دوت الصفارة وتتابعت دقات الطبول. قمنا ننفض عن أنفسنا الكسل. انتظمنا فى الطابور. ولمحنا القائد متجهم الوجه فلم ندر إن كان تجهمه بسبب ذنبنا الأول أو أنه فطن أيضا لذنبنا الثانى ولكننا كنا أبعد ما يكون عن الندم. وهمس صوت:

ـ نجونا بمعجزة.

فقال آخر:

ـ أو علينا أنا نتوقع عقوبة مضاعفة.

وأخذنا فى السير. بعزائم قوية مضينا. أسعفتنا روح التحدى والصبر. وقلنا لأنفسنا إنه مهما كان ومهما يكن ومهما سيكون فليس أخلد من البهجة والمسرة والمرح. ولبثنا على تلك الحال ساعة ونصفا أو ساعتين. ورغما عن إرادتنا سلمنا بأن الشمس عنيفة، بل أعنف مما تصورنا، بل هى فى الواقع لا تحتمل. وتصبب العرق حتى بلل ملابسنا، وضاعف من تذمرنا إحساسنا بعدم طهارته. الحق أن التعب بدأ يزحف على عضلاتنا وأعصابنا مبكرا بالقياس إلى الرحلات السابقة. وكلما تقدمنا اشتدت وطأته وعنفت ضرباته أما الحر فأصبح خانقا قاتلا. كلا لم نذق هذا الجحيم من قبل، ولم تخر قوانا كما خارت اليوم. وتراخت أوتار أصواتنا وهى تنشد الأناشيد، ولأول مرة نشعر بوزن الوقت وهو يتمطى فوق مناكبنا. تغير كل شئ، حال لونه وفسد طعمه، ففتر حماسنا ثم خمد. حتى الأناشيد تبدت لنا رتيبة مكررة فاقدة المعنى والروح فخجلنا من ترديدها. وخيل لنا أننا موضع سخرية المارة والمنتظرين تحت مظلات الباص. ولم تقف مشاعرنا المدمرة عند حد فأوشكت أن تلتهم الرحلة نفسها التى بدت طويلة بلا نهاية. معذبة بلا رحمة، خالية من أى معنى أو عزاء، غير جديرة بالطقوس التى تحكمها والنظام الذى يضبطها والآمال المعقودة عليها. وقائدنا نفسه لاح قائدا بلا قيادة ولا جيش، مضحكا فى غضبه، هزيلا فى عنفه. ألحت علينا تلك الأفكار، وكلما اشتد إرهاقنا اشتدت إلحاحا وعنفا، ونفد صبر البعض فتوقف عن الإنشاد أو جعل يحرك شفتيه بلا صوت، وجن البعض الآخر فجازف بالخروج من الطابور مع علمه بما يعنيه ذلك من فصله من الفريق مجللاً بالعار منبوذاً من الروح الرياضية. وهى فضيحة لم تغب عنا عواقبها، وآثارها البعيدة فى نفس القائد والمشرفين هناك فى المدرسة، ولكنها فى الوقت نفسه ميزتنا بشيمة الصبر وأملتنا فى تخفيف العقوبة، وإن لم تغير شيئًا من فتورنا وإرهاقنا وحال

الخذلان التى ركبتنا، وتتابع السير والغناء، ولم يعد شيء يحتفظ بعنفوانه إلا دقات الطبول وصلابة قائدنا غير المبالية، وأقران يعدون على أصابع اليد مضوا بهامات مرفوعة وعضلات مشدودة يرددون الأناشيد بحماس وإيمان حتى أثاروا الحنق والازدراء. وعندما لاحت لأعيننا الأهرام الشامخة كانت الشمس قد مالت نحو الغرب، فوهنت حدتها، ودبت فى الجو نسمة جعلت تلاطفنا فى استحياء. وأخذ الطريق فى الارتفاع فتضاعف إرهاقنا واشتدت آلامنا وتداعت أصواتنا. وبلغنا سطح الهضبة وقد اختفت الشمس وتدثر الكون بغلالة داكنة هادئة رددت أنفاسا ضعيفة كأنها أنفاس شيخوخة فانية. ودوى صوت الصفارة فتساقطنا من الإعياء ونحن نتأوه بأصوات غير مبالية. خَمّنا أننا سنمكث تحت الهرم ساعة أو أكثر قبل أن نستأنف السير إلى معسكرنا الموغل فى الصحراء ولكن قائدنا المنتقم قال بصوت سمعه الجميع:

ـ لديكم ربع ساعة كاملة!

ذهلنا! تبادلنا النظر فى صمت ونحن نعلم أن الأوامر لا تناقش ولم نضيع الوقت فى التحسر العظيم. ولم يكن بد من التضحية بالراحة فقمنا لابتياع ما يلزمنا فى مقامنا الأخير فى حدود ما تسمح به اللوائح. ومدة الإقامة مجهولة لا يعلم بها إلا القائد ولكنا آثرنا الأخذ بالأحوط. اشترينا ما نحتاجه من سجائر وصابون وفاكهة وقوارير المياه الغازية. ضاع وقت الراحة فى الشراء والمساومة وتنظيم السلع. وما فرغنا من ذلك حتى عادت الصفارة تدوى ودقات الطبول تدق بلا نهاية فانتظمنا فى الطابور الرهيب، يحمل كل منا سلة موز على يد وبطيخة على اليد الأخرى حاشيا جيوبه بالعلب والقوارير فضلا عن أدواته الأصلية كالعصا والزمزمية والحقيبة. وواصلنا الرحلة من غير أن ننال قسطا من الراحة، بعضلات منهكة وأعصاب متوترة وأنفس غاضبة. وضاعف من متاعبنا مقاومة الرمال الغزيرة لأقدامنا واختفاء معالم الدنيا فى جوف

الظلام الهابط. استحالت أصواتنا عواء محشرجا، وتقلصت عضلاتنا من حدة الآلام، فنسينا نسيانا تاما مسرات الرحلة كأنها لم تكن وتمنينا الموت. وداعبنا أمل أن يعدل القائد عن خطته وأن يقنع بما أنزل بنا من عقاب صارم، فتسترد الرحلة بهجتها المأمولة وأحلامها الضائعة ولكنه واصل سيره بلا مبالاة، ولم يكتف بذلك فصاح بصوت كالرعد:

ـ حركة سريعة، ابتدئ!

لم نصدق بادئ الأمر آذاننا، ثم بهتنا من شدة المباغتة. الحركة السريعة ندعى إليها عادة فى مطلع الرحلة وفى ضوء النهار، أما أن تفرض علينا قبيل النهاية فشىء خارق وغير إنسانى يراد به القضاء علينا. وإلى ذلك فهى نوع من الوثبات المتلاحقة فى صورة جرى متقارب الخطو يقتضى استخراج البطاريات من جيوبنا الخلفية لتنير لنا الطريق خشية أن نتعثر فى نقرة أو نرتطم بحجر، فكيف يتاح لنا ذلك مع حملنا الثقيل. وتعبنا الأليم؟! ولا فرصة للتمرد فليس أمام الهارب من الطابور فى ذلك المكان إلا الضياع فى الصحراء والظلام، فلا مفر من الانصياع والإذعان. ومضى القائد يثب، فاندفعت دقات الطبول فى تلاحق سريع. وشرعنا فى الحركة السريعة. جربنا أن نمارسها مع الاحتفاظ بأحمالنا ومع استغناء عن البطاريات ولكن بدا ذلك ضربا من المحال. لا مفر من التخلص من أحمالنا العزيزة، ولا مفر. حتى لو تعرضنا للكآبة والقرف والحرمان، لا مفر. وتخلصنا من البطيخ والسلال، تركناها لقى فى الصحراء للحشرات والهوام. وأخذنا نثب بسيقان متهافتة وعزائم خائرة وقلوب باكية. مضينا يلفنا الظلام على ضوء البطاريات المتحركة فى أيدينا كأننا نجوم متداعية تبعث بإشعاعها الأخير قبل اندثارها النهائى. وتذكرنا بحسرة ساخرة فرحة الاستيقاظ وبهجة الأناشيد ودعابة الطريق ونشوة الحقل ومتعة الشراء، تذكرنا ذلك كله بذهول، ونحن نتقدم شبه عرايا منهوكى القوى إلى معسكرنا

الرابض فى أعماق الخلاء. وتقدمنا كما قدر علينا ؛ وحتى الأسف لم يعد يجدى، ولم نهتم كذلك بما إذا كان ينتظرنا عقاب جديد أم سيكتفى بما حل بنا. وتاقت أنفسنا للنوم باعتباره الشفاء الأخير لجميع الآلام. وأخذت دقات الطبول تبطئ رويدا رويدا إيذانا بتغيير الحركة وتقارب المعسكر. وعدنا تدريجيا إلى سيرنا العادى، ومن شدة الجهد لم نجد حاجة لتبادل همسة واحدة فغاص كل فى وحدته. وما ندرى إلا ونحن ندخل فى الممر الطويل الضيق فتفعم أنوفنا روائح الكلس وعطن البول.. وفى الفناء امتدت تكويناتنا الرباعية لتصنع طابورا واحدا، فوقفنا متصبرين لنتقى التقوض والانهيار. وصمت قائدنا مليا، ربما ليتم تعذيبه لنا، ثم قال بصوت هادئ ملىء بالنذر:

ـ انتهت رحلتنا، وغدا يجمعنا الحساب، أما الآن فتناولوا عشاءكم ثم أخلدوا للنوم..

ولم يهمنا إلا النوم..

أجل، ليكن الآن نوم، وليكن فى الغد حساب.

العـــريـــــس

عند تلك النقطة من الحديث مال نحوى حتى شعرت بأنفاسه تنداح فوق صدغى وقال :

ـ اعزم وتزوج .

استجبت لاقتراحه ، كنت فى الواقع أتلهف عليه ، بت مؤمنا بأن الزواج هو المغامرة الوحيدة القيمة الباقية لى فى الحياة .

قلت :

ـ فكرة طيبة .

ـ وماذا تنتظر؟

ـ أنتظر العروس بنت الحلال .

ـ هل بحثت عنها بجد؟

ـ لا وقت عندى للبحث .

فقال واهتمامه بالموضوع يزداد بقوة :

ـ يوجد حل لكل موقف معقد ، ما هى شروطك؟

ـ عروس مناسبة ، هذا ما أريد .

ـ ست بيت أم عاملة؟

ـ ست البيت مفيدة والعاملة لها مزاياها غير المنكورة .

ـ العاملة تملك إيرادا؟

ـ الفقيرة مقبولة عندى وذات الإيراد مقبولة أيضا .

ـ لك مواصفات خاصة فى الجمال؟

ـ حسبى أن تكون مقبولة .

ـ شروطك يسيرة، أنت تريد امرأة حسنة المعاشرة .

ـ بلا زيادة .

فقال بثقة :

ـ طلبك موجود، هل تعرف أسرة ميرى؟ عابد ميرى؟ كريمته هى من أرشحها لك .

وقادنى ذات يوم إلى أسرة عابد ميرى فقدمنى لهم ـ الأب والأم والفتاة. والحق أنى غادرت بيتهم عاشقا أو قريبا من ذلك، تبدت لى الفتاة مثالا للرزانة والأنوثة والكمال البيتى، أحببت وقار الأب وأبهة الأم. وفى ذلك اللقاء تم الاتفاق الأولى وهو ما يقابل الترشيح للوظيفة فى اصطلاحاتنا الحكومية، وبقى الأهم وهو مسوغات التعيين وتقرير مكتب الأمن. ومن ناحيتى تحريت عنهم فجاءتنى تقارير متناقضة كالمتوقع، قيل لى :

ـ نعم التوفيق، أسرة ولا كل الأسر، ضمنت الطمأنينة والسلام فى الحياة والموت .

وحذرنى آخر قائلا :

ـ لا تغرنك المظاهر، ستخنقك أغلال العبودية .

وسمعت حكايات عن جنون بعض افراد الأسرة وانتحار آخرين ولكن لم يوهن ذلك من عزمى، تحصنت بخبرتى الطويلة بالحياة والبشر، وأسكرتنى نشوة متحفزة للمغامرة ودق أبواب المجهول، وقلت لنفسى إن الحياة نفسها شبيهة بهذا الذى يقال، تلقيناها وهى مثال للأمان حتى بعد الموت ثم تكشفت لنا عن مجهول جليل واحتمالات مبهمة وما زلنا نعشقها ونتعلق بأذيالها حتى الموت .

وفى الوقت نفسه تعقبتنى التحريات تغوص فى أعماق ذاتى وتاريخى، فساورنى قلق غير قليل، ورجوت أن يسود التسامح وينتصر فى النهاية. وجاءنى صديقى الوسيط وقال لى:

ـ لم أعرف أسرار صحتك إلا هذه الأيام.

فدهشت وتساءلت:

ـ حتى عن الصحة يتحرون؟

ـ طبعا، كثيرون لا تزكيهم فى الختام إلا صحتهم القوية!

ـ إنى بحمد الله أتمتع بصحة جيدة.

ـ ولكن توجد رصاصة مستقرة من قديم فى صدرك تحت الترقوة!

فضحكت منتشيا بالذكريات وقلت:

ـ ذلك تاريخ قديم.

ـ ولكن كيف نفذت إلى صدرك؟

فقلت بعد تردد:

ـ فى مظاهرة وطنية.

ـ تلك حجة كل مصاب برصاصة قديمة.

ـ أيمكن أن يشكوا فى ذلك؟

ـ العجوز أصبح يشك فى الثورة نفسها مع أنه كان من معاصريها، هو اليوم يقول إنه لم تندلع ثورة ولم يطلق رصاص ولم يستشهد أحد.

ـ هذا جنون رسمى!

فابتسم الصديق قائلا:

ـ على أى حال فمن حسن الحظ أنه قيل له ـ عابد ميرى ـ إنك أصبت بها فى ملهى للغناء والرقص!

ـ أتعد ذلك من حسن الحظ؟

ـ نسبيا، يمكن الدفاع عن عبث الشباب وطيشه أما التورط فى شئون السياسة فيعرض الإنسان لأخطار مجهولة وبالتالى تتعرض لها أسرته، على أننى دافعت عنك فى هذا الشأن.

ـ ماذا قلت؟

ـ قلت إنك لم تنتم لحزب، ولا تنتمى لرأى، وأنك مخلص للدولة، لم تكن من الليبراليين ولا الشيوعيين ولا الإخوان وذلك بلا شك يزكيك كزوج مأمون المستقبل!

فقلت بانقباض:

ـ ولكن من الظلم أن يقال إننى تعرضت للقتل فى ملهى للرقص!

ـ ما علينا، وما حكاية خوفك من الصراصير؟

فضحكت عاليا وقلت:

ـ حتى هذا؟

ـ قيل إنك تهدر وقتا ثمينا فى رش المطبخ والحمام والحجرات، وأن منظر صرصور خليق بأن يفزعك لدرجة الصراخ، حتى ولو كان من النوع الألمانى الصغير الرشيق!

ـ أهكذا تصفه؟

ـ الأمر تافه، يبدو تافها، ولكن ماذا يعنيه؟ هذه هى المسألة، ويقال أكثر من ذلك إنك تتوهم أن البلد ستتحسن أحواله كثيرا إذا نجحت فى إبادة الصراصير.

غضبت ولا شك وأنا أتابعه ثم سألته بازدراء:

ـ أيهتمون حقا فى بيت عابد ميرى بتلك السخافات؟

ـ يا عزيزى إنهم يحترمون بعض الذكريات المتعلقة بالصراصير.

ـ كلا!!

ـ هو الحق، كانت لهم جدة تؤمن بأن الصراصير تحمل بعض أسرار الوجود.

فقلت ساخرا:

ـ إذن نحاول احترام الصراصير حبا فى آل ميرى.

ورحت أفكر ـ عقب انفرادى بنفسى ـ فى طريق الزواج المعقد وهوس التحريات التى تسبقه، كأن الناس يطمحون إلى الظفر بالتوافق المنشود بين الزوجين كاملا غير منقوص، جاهزا بلا عناء التجربة، قبل خوض الحياة الزوجية، متناسين قدرة الإنسان الخارقة على التكيف من تحديات الواقع، فالإنسان الذى عاشر عصور الصيد والرعى والزراعة والقحط والجليد فتغلب على عناء المواجهة وحل التناقضات القاسية وحقق ذاته على الوجه المقبول الذى قر له البقاء فى الحياة، ذلك الإنسان قادر بلا شك على التكيف مع عروسه الجديدة مهما يكن من تنافر ماضيه وماضيها. وفكرت أيضاً فيما كان يؤخذ على فى الماضى من عدم الانتماء لحزب من الأحزاب، وما رميت به بسبب ذلك من تهم البلادة وقلة التربية الوطنية وغلبة العبث والتفاهة والأنانية وكيف انقلب ذلك إلى نقطة قوة تزكينى فى غمار التحريات التى تنهال علىّ منقبة عن المستور من خطاياى!

* * *

وجاءنى صديقى الوسيط بعد ذلك بأسبوعين فتفحصته بقلق وقلت:

ـ طبعا ما زالت التحريات جارية؟

فضحك باقتضاب وقال:

ـ الحديث كان عن السلوك الشخصى.

ـ هو على أى حال من ذيول الماضى الذى قررت تغييره من جذوره .

ـ أنا نفسى قلت ذلك ، ولكن الماضى يتمثل لبعض الناس وكأنه الحقيقة الوحيدة الراسخة .

ـ يا له من موقف سخيف حقا .

فقال برقة ليخفف من وقع حمولته :

ـ كلام قيل عن القمار .

فهتفت من فورى :

ـ كلا ، لست بطبعى مقامراً ، لعبت مرات معدودات ثم لم أعد إليه .

ـ والخمر ؟

ـ اسمع ، صدقنى ، دائما كنت وما زلت معتدلا ، لم أفقد الوعى إلا مرة واحدة .

ـ آل ميرى لا يخافون الشراب بقدر ما يخافون عواقبه .

ـ لم تكن ثمة عواقب وخيمة .

ـ عابد ميرى نفسه يشرب ، وهو يغنى إذا شرب ، ولكن قيل له إنك طولت لسانك مرة على الاستبداد وأنت فاقد الوعى !

ـ قلت لك إننى لم أفقد الوعى إلا مرة واحدة .

ـ ربما وقع ذلك فى تلك المرة ، وعابد ميرى يخاف أن يتكرر ذلك بعد أن تكون قد صرت زوجا وأبا ؟

فقلت بحدة :

ـ لا أساس لخوفه صدقنى ، ثم لماذا تذكر تلك الزلة وتنسى مجاملاتى الطويلة للاستبداد وأنا فى تمام الوعى ؟ !

ـ الموضوع قابل للمناقشة فلنتركه إلى حين ، ولكن ما الرأى فى ولعك بنسوان شارع محمد على ؟

فقلت وكل شيء يتجهمنى :

ـ ماضى أى رجل لا يخلو من عبث مثل ذلك .

ـ عابد ميرى يسلم بالمبدأ ولكنه يحتج على الذوق ، وقال إن يكن ذا ولع خاص بأولئك النسوة فكيف أتصور أنه يمكن أن ينسجم مع فتاة كريمة مثل ابنتى !

ـ وهل يوجد فارق حقيقى بين كريمته وبين نساء محمد على؟

فضحك صديقى وقال :

ـ آه لو سمعك تقول ذلك .

وساد صمت يغلفه الأسى ، وارتسم الإشفاق على وجه صديقى ، ولكنى أشرت إليه أن يواصل ، فقال :

ـ يتحدثون عن شقة مفروشة تملكها بناء وأثاثا !

ـ وفى نيتى أن أقيم فيها بعد الزواج ، ماذا فى ذلك؟

ـ الشقة لا تهم ولكن من دأبت على استقبالهم فيها !

ـ ماذا يقصد الأوغاد؟

ـ ها أنت تغضب فيحسن بى أن أسكت .

ـ هات ما عندك ، وإن أردت جوابا فإنى كنت أستضيف بها نخبة من الأصدقاء .

ـ أصدقاء من نوع خاص ، من إخواننا العرب الأثرياء .

ـ استضفتهم بصفتهم أصدقاء لا أثرياء وقد توطدت علاقتى بهم مذ أيام إعارتى للعمل فى بلادهم .

ـ أما أنا فأصدقك ولكنك تعلم كيف تترجم تلك العلاقات البريئة على ألسنة السوء !

فاستشطت غضبا وهتفت :

ـ للصبر حدود.

ـ لا تغضب فذاك امتحان يتعرض له كل طالب زواج.

وعجبت ـ وحق لى أن أعجب ـ من تشدد الناس فى تحرياتهم. وعجبت أكثر بالنظر إلى أننا نعايش فترة من الانحلال والفساد بات يضرب بها المثل. فلم يتشدد الناس فى تحرياتهم كل ذلك التشدد، وهل يعتقد الآباء أنه يمكن أن ينتقوا أزواجا لبناتهم من منطقة مجهولة تقع خارج الزمن والتاريخ؟. وهل عش الزوجية أهم فى حياتنا العامة من الوظيفة؟. وألا يضج الناس بالشكوى ليل نهار من الخدمات المبتورة ـ وضمنا ـ من المسئولين عنها؟ فكيف تزوج أولئك القادة وكيف تفادوا من مطاردة التحريات؟!.

ومضى حماسى للزواج يفتر، وندمت على تعريض نفسى لألسنة لا تعرف الرحمة ولا الحياء.

* * *

وبعد مضى ثلاثة أسابيع رجع إلىّ صديقى فبادرته من فورى:

ـ لن أستمر.

فقال بحدة:

ـ إنى أحتقر الضعف، اصمد حتى النهاية، ولا تهز ثقتك الكاملة بنفسك.

ـ سأخفق فى الزواج وأبوء بسوء السمعة.

ـ اعتبرنى لم أسمع شيئا، واسمع أنت ما قيل عن عملك!

وأثار حب استطلاعى بقوة فلم يسعنى تجاهله، قال:

ـ شهد لك كثيرون بالتفانى فى العمل.

فلم أعلّق وانتظرت متوقعا ما لا يسر.

ـ ولكن قيل إنك تحب السلطة وتركيز كل نشاطك فى يديك ثم تنطلق شاكيا من عدم تعاون الموظفين معك!

ـ لن أناقش، ولكن ما علاقة ذلك بلياقتى للحياة الزوجية؟

ـ كل سلوك مهما بدا عرضيا فله دلالته.

ـ استمر.

ـ وقيل كلام عن تحقيق أجرى معك بخصوص بناء مجمع!

ـ وماذا كانت نتيجته؟ التحقيق مجرد إجراء فلا هو خير ولا هو شر، وها هم يروننى مستمرا فى عملى، بل ترقيت مرتين بعد التحقيق، فما حكمة التنديد بى بسببه؟

ـ لك حق.

ـ إذن فلنعتبر تلك النقطة منتهية.

ـ ولكن قيل أيضا إنك هددت بجر آخرين أكبر منك معك فحفظ التحقيق!

ـ عليهم اللعنة!

ـ إنهم يستحقونها.

ـ أتحداهم أن يثبتوا ذلك!

ـ عليهم اللعنة، ولم يقفوا عند ذلك، بل جعلوا يتساءلون، كيف يعيش حياته المرفهة؟ كيف ملك الشقة المفروشة؟ والسيارة؟ من أين له ذلك؟

فكورت قبضتى غضبا وقلت:

ـ يتجاهلون ما ورثته عن والدى، كما يتجاهلون حقيقة أخرى وهى أن بعض مؤلفاتى المدرسية مقررة فى مدارس البلاد العربية.. فكل مصدر لإيراد عندى واضح وشريف.

توقعت أن يتكلم عن الذين قرروا كتبى وعن علاقتهم بالأصدقاء

الذين أستقبلهم فى الشقة المفروشة ولكنه لم يفعل، كأنما نكص حيال درجة الحرارة التى ارتفع إليها حنقى، بيد أنه حدجنى بنظرة قصيرة قرأت فيها ما تورع عن ترديده. وجعل يضحك ويقول:

- الرجل المخرف عابد ميرى يميل إلى تصديق الأكاذيب، وفى آخر لقاء قال لى إن سوء الظن من الفطنة وأنى بت أعتقد أن ذلك العريس هو المسئول عن ٥ يونيه!

فصحت فى ذهول:

- إذن فإنى المسئول عن ٥ يونيه!

وغادرت المكان مسرعا لا أكاد أرى طريقى من الغضب. ماذا يعرف المخرف عن ٥ يونيه؟. إنى مع التسليم بكافة جرائمى الخلقية أعد أو يجب أن أعد من أشرف الرجال. وهل أغرانى بالخطايا إلا الاقتداء بالآخرين؟!. وكنت فى الوقت نفسه ضحية، أجل ضحية لرؤسائى الذين ضربوا لى أسوأ مثل، وها أنا أحرم من جنة الاستقرار العائلى كأننى المجرم الوحيد!

وقررت العدول عن فكرة الزواج نهائيا.

وقلت لنفسى إنه ليس بالمرأة وحدها يحيا الإنسان.

وندمت أشد الندم على تعريض نفسى للزوبعة التى عصفت بها.

* * *

وكنت جالسا بمكانى المختار عندما لمحت صديقى قادما من بعيد. رددت فى نفسى الكلام الفظ الحاسم الذى سأجابهه به. وقررت أن أعلن تمردى على الزواج إلى الأبد.

وبادرنى الصديق، قبل التحية، قائلا:

- عابد ميرى يحييك، ويرجو أن تحدد موعدا لإعلان الخطوبة فى أقرب وقت ممكن!

العرى والغضب

ناعمة مستكينة، مهذبة غارقة فى الطمأنينة، ملهمة لأحلام البيت السعيد، تنتشر كالشذى فى أعماقه فتشكل بضعفها المناسب طاقة مسيطرة بعون الإغراء والرغبات الدفينة. وكانت بمجلسها أمامه فى الترام صورة مجسدة لأمنية عذبة غامضة، منعشة للروح، مبدعة للألفة الحميمة، فقال لنفسه إن هذا هو ما أبحث عنه. والتقت عيناها فى حركة عفوية بعينيه المركزتين فانتبهت من أحلامها واعتدلت فى جلستها ونحت وجهها مدارية ابتسامة خفيفة جدا لإدراكها بأنها كانت موضع نهم والتهام. ودفعته الابتسامة إلى اتخاذ قرار جرىء بتأجيل زيارته للمحامى - رغم دقة المرحلة التى تمر بها القضية - إذا دعت إلى ذلك فرصة طيبة. ولم يغادر مجلسه فى محطة «المحامى»، لبث ينتظر حظه المجهول، ولكنه تذكر على رغمه المحن التى عاناها - هو وأسرته من قبل - ما يقارب ربع القرن والتى احتوتها فى النهاية القضية، فلم يمض قراره بلا قلق، ولكن هل تقوم القيامة إذا تأجلت الزيارة أسبوعا؟. وانقبض قلبه وهو يتخيل محاميه فى غضبه لتخلفه عن الميعاد دون اعتذار، فإنه محام صارم، يحتقر المزاج ولا يحنو على الضعف البشرى.

ولما رجع بوعيه إلى الجالسة قبالته ضبطها تنظر إليه فى دهشة فأدرك من توه أن انفعالاته قد ترجمت إلى تشنجات فى قسمات الوجه وعضلاته وربما تعدت ذلك إلى اليدين، أجل فإن ذلك مما يلاحظ عليه أحيانا، ولكنه ابتسم إليها بجرأة لا تعوزه فى أمثال هذه المواقف فأحنت

رأسها باسمة، عند ذلك حل الرضى بصدره واطمأن إلى أن تضحيته لن تضيع فى الهواء. وقامت فقام وراءها بتلقائية وبلا أدنى ارتباك وبعد ثوان كانا يترامقان مواجهة على الطوار على حين امتد وراءهما ميدان الضاحية شبه خال وقد احمر قرص الشمس إيذانا بالمغيب. تمتم:

- فرصة سعيدة.

فمضت إلى الطريق الوسطى دون أن تجيبه ولكنها دعته بأسلوبها المشجع الصامت للحاق بها. ومشى إلى جانبها فتقبلت ذلك دون اعتراض فعاد يقول:

- فرصة سعيدة.

كان الطريق سكنيا بلا دكاكين، به قلة من المارة، وكثرة من السكان تتواجد فى الحدائق، ولما لم يتبين لها هدفا قريبا فقد قال:

- يوجد قريبا من هنا فرع للفردوس.

ولكنها واصلت السير فسار إلى جانبها وهو ينظر فيما أمامه متسائلا. ووجدها تتجه نحو بيت صغير من دور واحد فاقتحمته دهشة وتلقى رد فعل حاد وأليم. صدق ما يرى بصعوبة واحتجاج وتبرم وقال لنفسه: «حقا إنه لزمان زالت فيه الفوارق بين الأنواع». وبتبدد الحلم لم تبق إلا الحقيقة القاسية المبتذلة، فشعر بتأنيب لتفويته ميعاده الهام بشأن القضية، وتبعها إلى الداخل بلا حماس يذكر. ووجد البيت صغيرا حقا، يتكون من صالة طويلة وحجرة وحيدة فى النهاية. حجرة نوم آية فى البساطة أو فى الفقر، بها فراش ومشجب ومقعد وحيد، وحتى الفراش اقتصر تجهيزه على حشية ووسادة بلا غطاء ولا ملاءة، وانبسطت أرض الحجرة الخشبية بلا سجادة ولا كليم ولا حصيرة. ابتسم بفتور وهو يتذكر أحلامه المنتشية وقال إنه لم يبق ما يستحق

الاهتمام إلا المرأة نفسها، الجميلة ذات المظهر الخداع. ورجع المحامى يلح على وجدانه فسألها وهو يعلم بالجواب مسبقا.

ـ يوجد تليفون؟

فهزت رأسها بالنفى وهى شارعة فى خلع ثيابها فقال مداعبا يأسه:

ـ صحتك..

فنظرت نحوه باهتمام فرفع كأسا متخيلة فى الهواء ثم رشف رشفة فابتسمت وواصلت خلع ثيابها فى رسوخ المحترفات حتى تبدى جسدها عاريا جميلا محايدا، ونظرت نحوه كأنما تحثه على الاقتداء بها، فأذعن لدهائها الصامت وهو ينادى بإصرار حماسه الهارب.

* * *

وغادرت الحجرة فأشعل سيجارة. تابع الدخان بفتور وأسى. عاد يفكر بالقضية، وبالنقاط التى عنّ له أن يناقشها مع المحامى. لو وجد تليفونا لانتحل عذرا للرجل واتفق معه على موعد آخر. ولا فائدة ترجى من الذهاب الآن لأنه سيجده منشغلا بموعد آخر. أو يجده قد غادر المكتب. وقد عاش زهرة عمره ولا أمل له إلا كسب القضية ولكن الله وحده يعلم بما عانت أعصابه طيلة تلك الفترة الغالية من العمر.

ـ لا تلجأ إلى المحاكم. المحاكم حبالها طويلة. وهيهات أن تظفر فى ساحتها بحاجتك.

ـ وما عسى أن أفعل؟

ـ كما كان يفعل أجدادك، بل كما يفعل خصومك..

ـ ولكن الزمن تغير.

ـ الزمن لا يتغير، أنت الذى تغيرت..

ـ إنى رجل متعلم.

ـ عليه العوض!

اليوم لا يدرى إن كان أصاب أم أخطأ، ولكنه وقع فى أسر القضية، فوكل المحامى، وتبارى المحامون، وتكلم الشهود، ولم يعد فى الإمكان تغيير الخطة. وها هو عار ملقى على فراش عار على حين ينتظر المحامى ويتعجب!. ولكن ألم تغب الفتاة فى الحمام أكثر مما يجب؟. أى مظهر خداع. وأى آمال قد تبددت. يبدو أن الدنيا تتغير بأسرع مما يدرك. وقد ينزلق فى هاوية مخيفة بسبب رغبته الملحة فى الزواج والاستقرار. وفضلا عن ذلك فعليه أن يؤجل مشروع الزواج حتى يتم الفصل فى القضية، وإلا فما جدوى أن يتزوج اليوم ثم يشهر إفلاسه غدا؟!.

ـ هل تلجأ للقضاء لأنك متعلم حقا أو لأنك ضعيف؟

ـ إنك تتكلم يا عمى بلغة هيروغليفية.

ـ ابصق على ذقنى إن نجحت فى ذلك السبيل مقاصدك.

ـ نحن نتفاهم بلغة حية جديدة.

لا بد للحق أن ينتصر ولو طال الزمن، ولكن ما بال المرأة قد تأخرت؟ ماذا تفعل فى الحمام؟ وبرم بالانتظار فغادر الفراش، فتح الباب نصف فتحة، أخرج رأسه فرأى الصالة غارقة فى الظلام إلا شعاعا يترامى من منعطف جانبى خمن أنه الحمام. تنحنح فلم يرد أحد. صفق فلم يرد أحد. سار على أطراف أصابعه نحو الضوء حتى وجد نفسه فى الحمام ولكنه وجده خاليا. أدرك أنها اغتسلت ثم ذهبت إلى مكان ما ـ لعله المطبخ ـ فقرر أن يأخذ دشا. وتحت سيال الماء المتدفق انتعشت روحه وخف شعوره بالذنب حيال المحامى. أجل سيرميه بالإهمال فهذا دأبه كلما قعد به عن الاتصال به عذر، ومع ذلك فعندما واظب على ملاحقته فى الشهر الماضى ضاق به وقال له:

ـ يلزمك أعصاب من حديد لكى تواجه حياة العصر . .

وقال له أيضا مازحا :

ـ إنى أتوقع أن تجيئنى المرة القادمة حافى القدمين مرسل شعر اللحية والرأس مسطولا كما يفعل شباب العالم الحر!

والمسألة فى حقيقتها أن القضية هى حياته أما بالنسبة للمحامى فهى النشاط رقم كذا فى جدول أعماله الحافل بأمور لا نهائية، وهو ـ المحامى ـ رغم رسوخه فى العلم وقدرته الفائقة على الإنجاز، ورغم عطفه الشديد عليه، فإنه لا يكن له احتراما كافيا. وفى ساعة صفاء وهما يتناولان الغداء معا قال له :

ـ لولا اندفاعك الجنونى لما كان للقضية وجود أصلا . .

فقال له بإصرار :

ـ إنها مسألة كرامة . .

ـ ولكن حتى الاندفاع الجنونى يجب أن يقوم على أساس من العقل!

ـ الحقيقة أنك لا تفهمنى . .

ـ حقا! أأنت لغز؟

ـ إنى أحترم أمورا تعتبرها أنت بكل بساطة خرافات وأباطيل . .

ـ لقد تأخرت يوما عن موعد هام لتشهد صلاة العيد فما معنى ذلك؟

ـ قصصت عليك عشرات القصص ولكنك لا تصدق .

ـ حقا؟ . فماذا يعنى جريك وراء النسوان وتقلبك فى الحانات؟

عند ذاك قال بانفعال :

ـ أأنت محام أم مرب؟!

وغادر الحمام عائدا إلى الحجرة وهو يضمر لها ـ المرأة ـ عتابا على طول اختفائها ولكنها لم تكن قد رجعت بعد. وذرع الحجرة ذهابا وجيئة ثم قرر أن يرتدى ملابسه. اتجه نحو المشجب ولكنه لم يجد

لملابسه أثرا. ذهل، أجال بصره فى أنحاء الغرفة ولكنه لم يعثر على شىء. أية مداعبة سخيفة.

ـ رباه!

ندت عنه فى ذهول أشد عندما تبين له أيضا أن ملابس المرأة غير موجودة. تفحص أنحاء الحجرة بغضب، نظر أسفل السرير، مضى نحو الباب وصفق بشدة. ولم يكن عرف لها اسما فصاح:

ـ يا ست!

وبنبرة أشد:

ـ يا هوه.

واندفع يفتش الشقة الصغيرة، الحمام مرة أخرى والمطبخ ولكنه لم يجد أثرا لإنسان. ومضى نحو باب الشقة فوجده مغلقا بإحكام فرجع إلى الحجرة وهو يتميز غيظا وحنقا. واضح أن المرأة قد ذهبت. من السهل تصور أنها كانت مختفية فى ظلام الصالة عندما دخل الحمام، ثم ارتدت ملابسها بسرعة وأخذت ملابسه وذهبت. ما معنى ذلك؟. هل أرادت سرقته مع منعه من اللحاق بها؟. افتراض غير مطمئن، وثمة سؤال آخر، بيت من هذا؟.. وأى علاقة للمرأة به؟ وكيف تتركه عاريا فى هذه الشقة الجرداء؟!.

وشعر بالعجز والقهر والضياع اللانهائى. لن يرجع إلى ما كان عليه، ذلك الرجل المحترم. إنه يودع حياة يعرفها ليستقبل حياة مجهولة مدمرة. ولكنه لا يريد أن يصدق، لعله مزاح ثقيل سخيف ليس إلا..

ولكن الوقت يمر بلا مبالاة. وفجأة ضرب بيده على جبينه وهتف:

ـ مكيدة، إنها لمكيدة مجرمة!

لا تقع هذه الأمور مصادفة. إن أيدى خصومه تتراءى له وهى تدبر بخبث وإحكام رامية فى النهاية إلى إفشال القضية. يتذكر الآن أنه لمح

المرأة فى مشرب الشاى قبل أن يغادره ليستقل الترام . وأنها جاءت فى أعقابه لتجلس أمامه . وسألته عن الساعة لتضبط ساعتها وفى الحقيقة لتلفت نظره إليها . وأنها لم تكن ملاكا كما تصور ـ كيف تصور ذلك ـ فقد فرجت بين ساقيها العاريتين لحظة ثم ضمتهما بسرعة وحياء مصطنع فظنها حركة بريئة طاهرة ، ثم استسلمت لأحلام مجهولة فى استرخاء ناعم ، فكان بوسعه أن يدرك حقيقتها ، ولكنه ثمل بخياله الجامح ورغباته الدفينة فرأى ما لا وجود له وبنى عليه العلالى واندلق كغر أبله ، لقد أحاط خصومه بتحركاته وأهوائه فرسموا خطة محكمة وأوقعوه بسهولة مخجلة ثم تركوه عاريا فى مسكن مجهول ليتوقع قدرا مجهولا . وبمقتضى ذلك المنطق السليم القاسى فعليه أن ينتظر ضربة قاضية فى المصيدة .

ـ ما العمل؟

كيف يفر قبل أن يدهمه الخطر؟ . وجال فى المسكن مرة ومرة بلا جدوى على الإطلاق . ليس إغلاق الباب بمشكلة فبوسعه أن يقفز من النافذة ولكن كيف يواجه الطريق عاريا ، هذه هى المشكلة . وأدرك أن خلو السرير من الغطاء والملاءة لم يكن عن فقر أو مصادفة ولكنه ضمن الخطة التى رسمت لحرمانه من أى شىء يستتر به جسده . وقف وراء النافذة ينظر من خصاصها إلى الطريق المضىء الذى لا يخلو لحظة من عابر ، كيف يمكنه أن يمضى فيه عاريا؟ وماذا يفعل عندما يبلغ الشوارع المزدحمة بفرض أن أمكن عبور هذا الشارع دون حادث؟! وسواء أبقى أم انطلق متخطيا حدود العقل فسوف يقع تحت طائلة إحدى تهمتين خطيرتين ، السطو أو الجنون ، وكلتاهما خليقتان بزلزلة أركان القضية ، فما العمل؟ ولم يشعر فى وقت مضى بما يشعر به الآن بالحاجة الماسة إلى مشاورة محاميه لعله يهديه إلى منفذ فى عالم القوانين المتشعب الذى يجهله كل الجهل . قال له ذات مرة :

ـ احرص على الجدية والاستقامة فإن أى هفوة ماسة بسمعتك ستبدد مجهودى هباء.

فسأله ضاحكا:

ـ أتطالبنى بالتقشف حتى يصدر الحكم؟

ـ ولِم لا؟

ـ ومَتى تراه يصدر فى تقديرك؟

ـ آسف على أنك لا تحترم التقشف وبخاصة فى ظروفك الراهنة التعيسة!

واشتعل غضبا فهمّ بتعنيف الرجل. أكثر من مرة همّ بتعنيفه ولكنه كان يتذكر أنه لم يدفع له مليما واحدا سوى رسوم التوكيل، وأن الأتعاب مؤجلة ومنوطة بكسب القضية، فيرجع إلى عقله ويكظم غيظه ويسكت. والحق أنه لا يحب التقشف، بل أنه يضيق بمحاميه لتقشفه المعروف عنه، وأى قيمة للحياة بلا طعم لذيذ وشراب هنىء وعناق حار ومقام وثير؟! ذلك جميل حقا ولكن تحت شرط ألا يجد نفسه عاريا فى بيت غريب متوقعا بين لحظة وأخرى أن تدهمه ضربة قاضية.

وتساءل عما يراد به. هل يتركونه حتى يضطره الجوع إلى الخروج؟ هل يجيئون ليخيروه بين التنازل عن القضية وبين استدعاء الشرطة لضبطه بالحال التى هو عليها؟

هذا أو ذاك أو غيرهما من الاحتمالات، كلها طريق واحدة تفضى إلى الضياع.

وغلى دمه.

كل شىء محتمل إلا تخيل ابتسامة الشماتة فوق شواربهم الغليظة.

وسمع صوتا فهرع إلى النافذة فرأى سيارة تقف أمام البيت.

ـ كما توقعت قد جاءوا..

واندفع دمه فى الغليان . . ومن شدة القهر جن غضبه . واكتسح الغضب الخوف فلم تبق فى صدره إلا ألسنته المشتعلة . كان لعبة بأيديهم طيلة الوقت ولكنه رفض أن يستمر لعبة وأضاء المصباح فتبدى عاريا، متجردا من الخجل والخوف . ها هى الحركة تدب خارج الحجرة . ستطالعه نظرات باردة وبسمات ساخرة فليبتسم وليسخر مثلهم . سيقول مقدمهم وهو يصطنع دهشة مقيتة :

ـ ماذا نرى؟

فيقول بهدوء تام :

ـ طال انتظارى لكم !

ـ هكذا عاريا !

ـ كما ترون !

وليكن ما يكون ولكن اللعبة لن تستمر .

واقتربت الأقدام ثقيلة وتطايرت الضحكات .

وانتظر ينظر فى هدوء وتصميم وعناد .

غير مبال بالعواقب .

الجـــريمــــة

تلاشى الهدوء فى رحاب التاريخ، تغيرت أشياء كثيرة، برزت معالم جديدة، ولكن بقى الحى الشرقى يزخر بالأزقة والحوارى والبيوت البالية، يقابله الحى الغربى بفيلاته الكلاسيكية وعمائره الأنيقة الحديثة، هكذا وجدت الضاحية التى ولدت فيها بعد غيبة دامت ربع قرن. بهرنى ميدان المحطة باتساعه ومبانيه الحديثة وتمثال الفلاحة الناهضة، والشارع العريض الطويل الغائص فى أعماق الضاحية حتى المسلة القائمة فى الحديقة الكبرى، كما بهرتنى المصانع الجديدة بضخامتها ومداخنها النفاثة وضجيج آلاتها.

ورغبة منى فى الاختلاط بالناس وتوثيق علاقتى بهم قررت الإقامة فى الضاحية فذهبت إلى مكتب سمسار للشقق وجلست فى الانتظار بين جمع من الرجال والنساء. جلست بوجه بسام مشحوذ الهمة للاستجابة لأى بادرة ودودة ولكنهم كانوا منهمكين فى الحديث:

- ألم يستدل على شخصية صاحبة الجثة؟

- كلا، وجدت مدفونة من سنين ومحترقة تماما...

- كم سنة؟

- أربع أو خمس سنوات، هذا ما كتب فى الخبر.

- والقاتل؟

- لم يعرف بعد، والأرجح أنهم عصابة. فالقتل والإحراق والدفن تحتاج إلى أكثر من مجرم واحد..

وتداخلت فى الحديث سائلا :

ـ ألم يعلن فى الضاحية وقت ارتكاب الجريمة عن اختفاء امرأة؟

فساد صمت انقطع به الحديث مليا ثم قال شخص :

ـ لا يمكن تذكر ذلك .

فقلت :

ـ ولكنه لا يمكن أن يغيب عن تفكير المحقق . .

لم تحز ملحوظتى قبولا فيما بدا لى ، فأكدت غربتى بدلا من أن تفتح لى مدخلا إلى علاقة حميمة . وخفت أن أكثر من الأسئلة فيساء بى الظن وخاصة لشدة حساسيتى من ناحية المهمة التى أحمل أمانتها ، وليقينى المستند إلى خبرة مهنتى بأن الأعين يجب أن تكون منتبهة تماما نحو أى دخيل قد يهدد أمن الضاحية وسرها العجيب . وجاء دورى للمثول أمام السمسار فوجدت فى حجرته نفرا من المتعاملين ، ووجدت أن حديث الجريمة يطوف بهم رغم انهماكهم فى إنجاز أعمالهم ، وحتى السمسار نفسه يشارك فيه :

ـ لا حديث للضاحية إلا الجريمة ، يتردد فى السوق والمكاتب والمصانع والأكواخ والفيللات . . .

ـ ذلك طبيعى جدا .

ـ وما الفائدة؟

فقال السمسار :

ـ ثرثرة ، معالجة عقيمة للخوف والعجز ، ثرثرة لا جدوى منها .

ـ ثرثرة وأمان فارغة .

ـ ولم الخوف بالله كأنما كل فرد من الضاحية يخشى نفس المصير .

غادرت المكتب بعد أن أجَّرت حجرة مفروشة فى مبنى بالحى

الشرقى، وسط الجمهور الذى أعتمد عليه فى استخلاص الحقيقة المنشودة. وتذكرت مقابلتى لرئيسى التى كلفت فى ختامها بالمهمة.

قال:

ـ ستذهب إلى الضاحية لجمع التحريات والمعلومات.

وقال أيضا:

ـ من حسن الحظ أن أحدًا من رجال الأمن هناك لا يعرفك..

فسألت باهتمام وأدب:

ـ ولكن لم سوء الظن يا سيدى؟

ـ حسن، طمست معالم جرائم قبل ذلك وقيدت ضد مجهول، لم تكن بفظاعة جريمة اليوم، ولكن ليس ما يمنع من أن يكون مصيرها كمصير سابقاتها...

ـ ورجال الأمن هناك ماذا يفعلون؟

ـ أتريد رأيى؟ إنهم متواطئون، لعلهم يقومون بالدور الرئيسى فى طمس معالم الجريمة..

ـ ولكن لماذا؟

ـ ذلك ما أود أن توافينى بأسبابه..

ـ وأهل الضاحية ما موقفهم؟

ـ هذه هى المسألة..

ـ أليست القتيلة منهم وكذلك القاتل؟

ـ إنى أؤمن بذلك كل الإيمان..

ـ إذن لم لا تكتشف الحقائق ويقبض على المجرمين كما يحدث فى كل مكان؟

ـ هذه هى المسألة.

كذلك دار الحديث قبيل تكليفى بالمهمة. لم تكن مهمتى إجراء أى تحقيق بصفة سرية لمعرفة شخصية القتيلة أو القبض على القاتل، وما كان ذلك بوسعى، لأنه لا يقع فى اختصاصى من ناحية، ولأنه أمسى متعذرا ما دام قد مضى على تاريخ الجريمة حوالى الخمس السنوات. مهمتى كشف السر عن الأسباب الخفية لطمس معالم الجرائم فى الضاحية، عن المصلحة المشتركة التى تشد الناس الى ذلك الفقراء والأغنياء ورجال الأمن.

غادرت حجرتى لأمارس العمل الذى اخترته عندما قابلنى رسول جاء يستدعينى الى مكتب الأمن. ذهبت من فورى قلقا متشائما. ما معنى الاستدعاء؟.. هل رابهم شىء فى سلوكى؟ هل أواجه التحدى وأنا لم أكد أشرع فى العمل؟

ومثلت أمام الضابط الذى سألنى عن اسمى وعملى، ذكرت الاسم وقلت:

ـ سواق تاكسى.

وقدمت بطاقة الشخصية والرخصة فراح يتفحصهما بعناية وأنا مطمئن إلى أنه لن يجد ما يريبه فيهما، ثم تفحصنى بنظرة ثاقبة وسألنى:

ـ لم اخترت هذه الضاحية للعمل؟

فقلت بعد تفكر:

ـ إنه حق مشروع لكل مواطن ولا يستدعى فى اعتقادى استجوابا.

فأعاد سؤاله ببرود:

ـ لم اخترت هذه الضاحية للعمل؟

فآثرت السلام حرصا على نجاح مهمتى وقلت:

- عملها المحدود مناسب لرزقى وصحتى واتجه اختيارى إلى هنا لأنى أصلا من مواليد الضاحية .

- ألك بها أهل أو أقارب؟

- كلا . . هجروها منذ حوالى ربع قرن . .

- الجريمة خلقت نفوراً عاما من الغرباء .

كدت أسأله هل عرفوا هوية المجرمين ولكنى أمسكت عن حكمة وتساءلت :

- هل تقرر إبعادى من أجل ذلك؟

فرد إلى البطاقة والرخصة وقال ببرود :

- اذهب .

ذهبت وأنا أفكر بمدى ارتياب الرجل بى ولكننى لم أجد فى سلوكى ما يسوغ ذلك على الإطلاق فنحيته عن شعورى لأمضى فى طريقى بلا ظنون وهمية قد تربكنى وتكشف سرى . وكنت أوصل رجلين فى التاكسى إلى المحطة عندما سمعتهما يتحاوران عن الجريمة :

- فظيعة فظيعة ، أى قسوة!

- كانت بارعة الجمال!

- ولكن النار لم تبق منها على شيء؟

- أعنى لو لم تكن جميلة لما تعرضت للقتل ، أنت تفهمنى طبعا . .

- طبعا ، انقضاء خمس سنوات على دفنها يجعل العثور على دليل أمرا مستحيلا . .

فتدخلت فى الحديث قائلا :

- قرأت فى الجرائد أنه يمكن بفحص الموميات علميًا معرفة أسباب الوفاة ، فإذا كان السبب جريمة أمكن بمناقشة الملابسات التاريخية

تحديد القاتل فى شخص أو طائفة . . فضحك الرجلان وقال أحدهما :

ـ على عهد الفراعنة كان الناس يموتوت أو يقتلون لأسباب مقنعة . .

وضحك الرجلان مرة أخرى .

قلت لنفسى إن أحاديث الناس لا تدل على أنهم متواطئون، وتقطع بأنهم غير راضين حتى ولو كانوا متواطئين، فلماذا يشتركون فى إخفاء معالم الجريمة والتستر على القاتل أو القتلة رغم إرادتهم أو رغم نفورهم؟!

ومرة كنت أوصل أسرة إلى عيون المياه فدار الحديث أيضا حول الجريمة .

ـ ممّا يقال بخلاف ذلك فهو مجرد إشاعة .

ـ أنت تعلم كما نعلم أنها الحقيقة . .

وتوثبت لإرهاف السمع ولكنى لمحت فى المرآة امرأة تحذر المتكلمين مشيرة بذقنها نحوى! وجعلت أتقلب فى شتى الأماكن كما أتابع الأحاديث فى التاكسى، أسجل الكلمات فى ذاكرتى، أناقشها، أفكر بأبعادها، أستنتج متعاملا مع الاستقراء والقياس، مستفيدا من كل ملاحظة .

وقد سألت رئيسى وكنت أزوره كلما أوصلت راكبا إلى العاصمة :

ـ ألا يوجد احتمال أن يكون مرتكب تلك الجريمة من خارج الضاحية؟

ـ ليس ذلك بالمستحيل، وفى تلك الحال تكون الجريمة عادية وتأخذ العدالة مجراها . .

ـ ما الذى يحمل فقراء الحى الشرقى على الاشتراك مع سادة الحى الغربى فى إخفاء جريمة رغم حدة التناقضات بين الجانبين؟

ـ تساؤل يقطع بأنك بدأت تضع قدمكم فى الطريق الصحيحة .

ـ أرجح أن يكون القاتل من السادة!

ـ تفكير سليم جدا!

ـ هل يعنى ذلك أن القتيلة من الجانب الآخر؟

ـ قد وقد . .

ـ السر إذن يكمن فى المصلحة المشتركة بين الجميع حتى رجال الأمن أنفسهم؟

ـ هذه هى المسألة . .

وعلمت مما يقال فى الضاحية أن الجثة اكتشفت وهم يحفرون الأساس لبناء مصحة الأمراض العقلية، وعرفت أول من عثر عليها من البنائين، وهو صعيدى من هواة الجلوس فى مقهى الشمس بالحى الشرقى. وعملت على التعرف به ومجالسته فشربنا الشاى معا . وسألته :

ـ كيف كان شعورك عندما عثرت على الجثة المطمورة؟

فقال بفخار :

ـ ناديت أصحابى ثم جاءت الشرطة . .

تبادلنا حديثًا سطحيا مؤجلا الأسئلة الهامة للقاء آخر، ولكنى لم أعثر عليه بعد ذلك، وقيل إن ظروفا اضطرته للسفر فورا إلى الصعيد . ترى هل وقع ذلك بمحض الصدفة؟ . ساورنى القلق فخفت أن أكون مراقبا على غير ما أتصور، وشحذت انتباهى ما وسعنى ذلك، ولكنى لم أكف دقيقة عن نشاطى المرسوم . فتحت صدرى لكل علاقة، استكثرت من الأصدقاء، قدمت الخدمات بلا حساب، وظل حديث الجريمة يجرى على كل لسان، فى البيت والمقهى والسوق والتاكسى، يتردد بغيظ وحنق، وأحيانا بسخرية، ولكنه لا يشق حجاب الغموض

أبدا، ثمة شيء فى الأعماق يعوزه التعبير، يكبته أنه فى اللاوعى، أو الخوف أو الخجل أو الرغبة المحمومة فى الهرب. ولاحظت ذات يوم - وأنا فى السوق - أن امرأة فقيرة دمعت عيناها وهى تصغى إلى حديث الجريمة الذى لا ينقطع. جذب وجهها عينى بفقره وجماله الذابل المتوارى وراء غلاف من الإهمال والتعاسة. ترى هل تبكى بدافع عاطفة إنسانية عامة أو لأسباب أشد خصوصية؟ وقررت فى الحال تعقبها من بعيد لعل وعسى. ولما وصلت إلى آخر منطقة فى السوق اعترضنى صوت قائلا:

- ها أنت تهيم على وجهك مهملا عملك!

التفت فرأيت الضابط واقفا يرمقنى بنظرته الباردة، فقلت:

- جئت أتسوق.

- وأين التاكسى؟

- فى الميدان الجديد.

ومضى إلى سبيله تاركا إياى فى حيرة. فتشت بعينى عن المرأة ولكنها كانت قد ذابت فى الزحام. ورجح لدى أننى أواجه تدبيرًا محكما لا صدفة عمياء، وأن على أن أضاعف من الحذر.

وتفرغت لعملى كسواق تاكسى أياما متتابعة، وكلفت خاطبة أن تبحث لى عن عروس مناسبة، ثم تسللت ذات ليلة، عند منتصف الليل، إلى الحانة الموجودة عند مشارف السوق. وجدتها مكتظة بالشاربين، تضج بالنكات والأغانى، حارة بالأنفاس والدخان والهواء الفاسد. شربت قليلا ولكنى تظاهرت بالنشوة والمرح، وأرهفت حواسى لتصيد الفلتات والشوارد. وكالعادة تطعم كل حديث، كل مزاح، بحديث الجريمة. قلت لنفسى متعجبا:

- كأنهم جميعا مجرمون أو ضحايا أو الاثنان معا.

وسمعت ضمن الأحاديث حوارا ذا دلالة فيما أعتقد. قال الرجل محتجا:

ـ نحن ضعفاء.

فأجابه بحدة:

ـ بل جبناء.

ـ ماذا تفعل إذا اعترض سبيلك سياج من النيران؟

ـ أرمى بنفسى فيها!

ـ ارم بنفسك وأرنا شجاعتك.

وعربدوا ضاحكين. وانثال على نثار من الكلمات صالح لدى ربطه وإعادة تكوينه لإعطاء اعترافات خطيرة أو ما يشبه ذلك. تابعت ذلك وأنا ألهث من شدة الانفعال. وشىء جذب رأسى نحو مدخل الحانة كما يقع لدى توارد الخواطر فرأيت الضابط يتسلل خارجا! أفقت من نشوتى وانفعالى، وتنبهت فى غريزة المهنة فأدركت فداحة الخطر الذى يحدق بى. امتلاك سر خطير من هذا النوع يعنى الهلاك، وأنا خبير بأساليب مهنتى، ولذلك فعلى أن أفكر بصفاء ذهن. يجب مغادرة الحانة قبل أن تفتعل معركة من أجل القضاء على قضاء وقدرا، يجب تجنب السير فى الشوارع الخالية، لا تستقل التاكسى حذرا من انفجاره لأسباب مجهولة، لا ترجع إلى حجرتك حتى لا يغتالك كائن جاثم فى ركن منها. إلى المحطة رأسا عن طريق شارع المسلة، وهناك تتعدد الوسائل للوصول إلى العاصمة.

وفى صحن المحطة شعرت بيد توضع على كتفى فالتفت متوثبا فرأيت الضابط. وقفنا نترامق مليا حتى ابتسم قائلا:

ـ جئت لأودعك بما تقضى به أصول الزمالة.

عدلت عن المكابرة وتمتمت ساخرا:

ـ شكرا.

وهو يضحك:

ـ ولم تترك التاكسى وراءك بلا سائق؟

فقلت ساخرا أيضا:

ـ اتركه فى أيد أمينة!

وهو يعاود الضحك:

ـ ترى ما الملاحظات التى تمضى بها؟

ففكرت غير قليل ثم قلت:

ـ إنكم لا تؤدون واجبكم!

ـ الناس لا يتكلمون.

ـ أعلم أن أرزاق البعض بيد البعض الآخر ولكن الغضب يتجمع فى الأعماق وللصبر حدود.

فهز رأسه باستهانة وتساءل:

ـ ما واجبنا فى رأيك؟

ـ أن تحققوا العدالة.

ـ كلا.

ـ كلا؟!

ـ واجبنا هو المحافظة على الأمن.

ـ وهل يحفظ الأمن بإهدار العدالة؟

ـ وربما بإهدار جميع القِيم!

ـ تفكيرك هو اللعنة.

ـ هل تخيلت ما يمكن أن يقع لو حققنا العدالة؟

ـ سيقع عاجلا أو آجلا .

ـ فكر طويلا ، بلا مثالية كاذبة ، قبل أن تكتب تقريرك ، ماذا ستكتب؟

فقلت بامتعاض :

ـ سأكتب أن جميع القيم مهدرة ولكن الأمن مستتب!

المقابلة السامية

قمت بجولة فى العمارة الجديدة الخالية . هى جديدة بكل معنى الكلمة، فواحة برائحة الطلاء ما زالت، تحتل مربعا صقعا، وعما قليل تعلق فى أعلى مدخلها لافتة كبيرة تحمل اسم مصلحتنا العتيدة . وكنت وراء الملابسات السعيدة التى أدت إلى اختيارها وتأجيرها للمصلحة .

كنت كاتبا منسيا بالأرشيف ولكنى اخترت كاتبا للجنة التى شكلت للبحث عن مقام جديد للمصلحة يضم أشتاتها المتناثرة فى أحياء متباعدة بالمدينة الكبيرة . وكنت أعبر الطريق كل صباح أمام موقعها فى مسيرتى اليومية إلى المصلحة القديمة فدعوت اللجنة لمشاهدتها، وسرعان ما اتخذت الإجراءات الإدارية ثم توقع العقد مع مالكها .

قمت بجولة فى العمارة الجديدة الخالية . لم تكن إجراءات النقل قد بدأت بعد، وكنت مارا كالعادة فى الصباح فأغرانى الزهو، وشعور وهمى بالملكية، بالقيام بجولة بيروقراطية وكان البواب قد عرفنى فى الزيارات الرسمية السابقة؛ فاستقبلنى باحترام جاهلا ـ لطيبة قلبه ـ مدى البؤس الذى أعانيه كموظف منسى حقير، ذلك البؤس الذى أكده كونى رب أسرة مكتظة لا تذوق اللحوم إلا فى المواسم .

وفى فناء العمارة صادفت رجلا لا أدرى من أين جاء . غاظنى منه بصفة خاصة أنه كان يسير بأقدام ثابتة شديدة الرسوخ والثقة . ظننته جاء يبحث عن شقة يستأجرها فتوقعت منه تحية متوددة ولكنه تجاهلنى بادئ الأمر تماما، ومضى يلقى على ما حوله نظرات متعالية خليقة بأن تثير

حنق موظف ـ مهما قيل عن تعاسته ـ فهو مكتشف العمارة، فضلا عن أنه ممثل السلطة التى ستحتلها بعد أيام قلائل. وتحفزت للتحرش به ولكن فى حدود المعقول إذ كان ربعة متين البنيان مهيب الطلعة، وإذا به يبادرنى ـ بلا تحية ـ قائلا:

ـ أنت من طرف أصحاب العمارة؟

فقلت باعتزاز:

ـ أنا عضو لجنة المصلحة التى استأجرت العمارة.

فقال بهدوء:

ـ عظيم، أريد أن ألقى نظرة عامة على الداخل.

ـ ولكن من حضرتك؟

فقال بتلقائية وبساطة:

ـ أنا مدير المصلحة!

صعقنى قوله فتشنجت أطرافى وسرعان ما انحنيت بطريقة آلية كرد فعل سريع للشحنة الكهربائية التى بعثها شخصه فى كيانى المتهالك، وقلت بخشوع:

ـ لا مؤاخذة يا صاحب السعادة.

فقال بعدم اكتراث:

ـ تقدمنى..

اعتبرت أن السماء فتحت أبوابها فى وجهى وأغدقت على بركة ورحمة باختيارى مرشدا لسعادته. وتقدمته فى رشاقة، من مكان لمكان، واصفا الموقع، معددا المزايا، مستجديا نظراته الكريمة إلى الحجرات والأبهاء والردهات، مشيرا بمنتهى الذوق واللباقة إلى المرافق. وتطوعت قائلا:

ـ أعتقد يا صاحب السعادة أن الدور الثالث هو أليق الأدوار بمقامكم، فهو مرتفع لدرجة لا بأس بها تعتبر مانعا حاسما لضوضاء الطريق وفى الوقت نفسه لا تعد مشكلة فى الصعود أو النزول فى حال تعطل المصعد.

وفى فرصة تالية قلت:

ـ الركن البحرى ذو مزايا جغرافية لا يستهان بها فالطريق يحده من جهتين أما الجهة الثالثة فتقع بها محطة بنزين منخفضة، فهو ممر دائم للهواء وضوء الشمس.

وفى فرصة ثالثة قلت مشيرا إلى أضخم حجرة:

ـ هذه حجرتكم، وممكن وصلها بالحجرة التالية بهدم الجدار لتتسع للاجتماعات، وشق باب فى الجدار القبلى ليفتح على السكرتارية الخصوصية.

وقرأت أثر ذلك كله فى وجهه السمح رضى وارتياحا، ورجعنا إلى الفناء بعد جولة سعيدة موفقة وأنا ثمل بإلهام سماوى من عنف الفرح.

وتفضل سعادته فسألنى:

ـ وأنت فى أى إدارة؟

فقلت متلقيا طاقة النجاة ببراعة:

ـ كاتب بالأرشيف يا صاحب السعادة، كاتب منسى، ولى شكوى قديمة..

ولكنه قاطعنى قائلا:

ـ فيما بعد.. فيما بعد.

فاعتذرت عن تسرعى قائلا:

ـ لا مؤاخذة يا صاحب السعادة، سأرفع مظلمتى فيما بعد!

ومضى إلى الخارج وأنا أهرول فى أثره فصادفه بياع جرائد فأخذ مجلة وكتابا بلغ ثمنهما خمسة وعشرين قرشا، وتبين لى أن المدير لا يجد نقودا صغيرة تفى بالثمن وأن البياع لا يملك فكة لورقة كبيرة، حتى هم المدير بإرجاع المجلة والكتاب، ولكننى بادرت ـ مدفوعا بأريحية ملهمة ـ بدفع المبلغ المطلوب. وتردد المدير قليلا ثم سلم بالواقع قائلا:

ـ تعال من فورك إلى مكتبى لأخذ نقودك.

وذهب يتمتم:

ـ شكرا..

تركنى فى دوامة من انفعالات السعادة والأشواق إلى المجهول بحيث كان من أيسر الأمور أن تصدمنى سيارة وأنا غارق فى بحر الوجد والأمل.

وثبت فى يقينى أن صفحة جديدة من الإشراق تفتح فى تاريخى الملئ بالمتاعب والمحن، فقد تعرفت بالمدير العام، وعملت له مرشدا، وأطلعته على سوء حالى، ووعد بالنظر فى مظلمتى، وفى لحظة مباركة محفوفة بأنفاس الملائكة أصبحت له دائنا بخمسة وعشرين قرشا. ومعاذ الله أن أطالبه بالدين أو أن أذكر أحدا به، فهو القربان الذى يهبنى عطفه ويفتح لى عند الضرورة بابه. أجل إنه مبلغ جسيم يقتضى اتخاذ إجراءات تقشف جديدة حتى يتحقق نوع من التوازن يكفل لى أدنى مراتب الحياة حتى ينقضى الشهر ولكن كل شيء يهون إلا أن أقطع بيدى أسباب القربى التى تشدنى إلى رحمته.

وتم النقل إلى العمارة الجديدة، وكالعادة استقر بنا المقام ـ نحن موظفى الأرشيف ـ فى البدروم. ولم أكف عن التفكير فى العلاقة الخفية السعيدة التى تربطنى بصاحب السعادة. ولم أذهب إلى مكتبه للمطالبة بالمبلغ كما أمر ولم يرسله إلى مع أحد موظفى مكتبه والحمد لله. ومرت

الأيام تباعا حتى ساورنى خوف أن يكون قد نسينى فى غمار شواغله الكثيرة اللامحدودة. وأن تفلت من يدى فرصة العمر. واستخرت الله، وتحوطت عليه ثم قررت أن أطلب مقابلة المدير العام. وقصدت حجرة السكرتير الخاص ولكن الساعى اعترض سبيلى، وأفهمنى أن السكرتير مشغول جدا، وأبدى استعدادى لإبلاغه عن حاجتى، فقلت له:

- أرجو تحديد موعد للتشرف بمقابلة المدير العام.

فخطف الساعى نظرة جانبية من بدلتى المهلهلة ولكنه غاب عنى دقيقة وراء الباب المغلق ثم رجع وهو يقول:

- اكتب حاجتك على عرضحال تمغة وأرسلها بالطريق الإدارى المتبع.

ولم تجد معه أية محاورة فقد وجدته مغلقا صامدا مثل الباب الذى يجلس أمامه. ورجعت إلى مكتبى فريسة لقهر معذب ولكن بإرادة مصممة على الوصول مهما كلف الأمر. ومن توى لجأت إلى رئيسنا فى الأرشيف وهو كهل يشاطرنا البؤس والهوان ولا يتقدمنا إلا فى العمر فطمعت أن أجد عنده تجاوبا ورحمة. كاشفته برغبتى فى مقابلة المدير العام وسألته الرأى والنصيحة فسألنى:

- ولم تسعى إلى هذه المقابلة العسيرة؟

- أريد أن أعرض عليه شكواى.

- ألسنا كلنا فى البلوى سواء؟

- ولكنه شجعنى على ذلك!

- حقا؟!.. متى وكيف؟

فقصصت عليه الجانب الذى يهمه من لقاء العمارة فتفكر قليلا ثم قال:

ـ تلك كلمة طائرة عابرة لا يعول عليها .

ـ لن أضيع على نفسى وأولادى فرصة قل أن تجود بمثلها السماء . .

ـ نصيحتى أن تقلع عن تصميمك .

فهتفت بحماس :

ـ إنه أمل حياتى الوحيد .

فجعل يهز رأسه مفكرا فلم أر مفرا من إطلاق الرصاصة الأخيرة فهمست فى أذنه :

ـ سأودع لديك سرا فى ضميرك النقى ، لقد اقترض سعادته منى خمسة وعشرين قرشا !

نظر الكهل فى وجهى بذهول متجسم فقلت بحرارة :

ـ صدقنى فأنا أحادثك وأنا فى كامل قواى العقلية .

وقصصت عليه قصة النقود التى أدينه بها فسألنى بارتياب :

ـ هل سبق لك أن رأيت مديرنا العام؟

ـ كلا .

ـ من أدراك أن ذلك الرجل هو المدير؟

ـ لا شك فى ذلك ألبتة .

ـ ولم لا يكون رجلا عابثا استغل طيبة قلبك؟

ـ مستحيل . . دعنى أصفه لك . .

ولكنه قاطعنى قائلا :

ـ لا جدوى من ذلك فأنا لم أره إلا لمحا منذ سنوات ومن بعيد . .

ـ على أى حال أنا واثق من أنه المدير العام .

ـ حكايتك حكاية . .

فقلت متجاوزا الجدل :

ـ خذنى على قد عقلى، ودلنى على كيفية رفع شكوى للمدير العام.

ـ عظيم، تكتب الشكوى على عرضحال تمغة وتقدمها إلى بصفتى رئيسك المباشر فأعتمدها ثم ترفع إلى مدير الإدارة ليعتمدها بدوره ثم ترفع إلى المراقب العام ليعتمدها بدوره ثم ترسل إلى مكتب المدير العام، وثمة نصيحة لوجه الله وهى ألا تذكر أمام أحد حكاية الخمسة والعشرين قرشا!

وكتبت الشكوى بعناية، قدمتها لرئيسى المباشر، وقع عليها برجاء العطف، ومضيت بها إلى سكرتير مدير الإدارة، دسها تحت تل من الشكاوى ثم انصرف إلى عمله، سألته:

ـ متى تتفضل بعرضها على مدير الإدارة؟

فأجاب دون أن يرفع بصره عن أوراقه:

ـ لا شأن لك بذلك.

ـ ولكنها شكوى من نوع خاص، أعنى أننى ما كتبتها إلا بإيعاز من سعادة المدير العام نفسه!

فرمقنى بنظرة غريبة وتساءل ساخرا:

ـ سعادتك قريبه؟

ـ تلك هى الحقيقة بلا سخرية.

ـ ستعرض فى حينها أو خذها واذهب.

ـ لا تزعل، متى أرجع لآخذها؟

ـ بعد أن يتم عرضها.

ـ ومتى يتم عرضها إن شاء الله؟

ـ ستعرض فى حينها.

وانصرف عنى بحركة حاسمة طاردة فرجعت إلى مكتبى وأنا أسب

الكادر وشاغليه ما عدا سعادة المدير العام طبعا. ورجوت رئيسى أن يتشفع لى عند سكرتير مدير الإدارة ولكنه رفض بغرور الشاب وقلة أدبه. ومرت الأيام وأنا أنتظر وأتصبر.

وذات صباح وزميل لى يراجع معى ميزان الوارد مال نحوى وسألنى هامسا:

- هل حقا أقرضت المدير العام خمسة وعشرين قرشا؟

فانزعجت جدا وتولانى الذعر وسألته عمن أخبره بذلك فقال إنه سمع همسا يدور حول الموضوع فى الأرشيف. يا دافع البلاء ارحمنا. واتهمت رئيسى ولكنه أقسم لى بأولاده أنه لم ينبس بكلمة واحدة، فاتهمت زوجتى - ولها صديقات بين زوجات الموظفين - ولكنها أنكرت إما عن صدق أو عن خوف. انسكب سم القلق فى نفسى، وتوهمت أن الأنظار تلاحقنى بدهشة وسخرية، وأن أصحابها عما قليل سيرموننى بالعته أو الجنون، ولذلك كان على أن أسرع فى مسيرتى قبل أن يقع ما ليس فى الحسبان. وذهبت إلى سكرتير مدير الإدارة، فلم يرد تحيتى ولكنه أشار بامتعاض إلى شكواى فتناولتها شاكرا وهرعت من فورى إلى سكرتير المراقب العام. قدمت الشكوى. أردت أن أشرح له أهمية الموضوع ولكنه بادرنى قائلا:

- اتركها واذهب.

ولكى أرضيه تحركت نحو الباب غير أننى سألته:

- متى أرجع لتسلمها؟

- لا ترجع.

فمن اليأس تجرأت على أن أسأل:

- والشكوى؟

فرفع عينيه إلى السقف كأنما يشهد الله على قحتى، وعند ذاك تطوع

أكثر من شخص من المحتشدين فى الحجرة ينصحوننى بالامتثال وتنفيذ الأمر، حتى بهت واجتاحنى الخوف، وتطوع الساعى لأخذى من ذراعى بلطف يوحى بالعطف، وأفهمنى فى الردهة بأن مكتب المراقب العام يرسل بريده مباشرة إلى مكتب المدير العام.

ـ وكيف أعرف أنها أرسلت؟

ـ تعال بعد أسبوع أو عشرة أيام وقابل كاتب الصادر بمكتب المراقب العام فيعطيك الرقم والتاريخ وبهما تستدل على مصير شكواك فى مكتب المدير العام..

فقلت مداريا عجزى:

ـ تصور أننى سألقى من الاحترام فى مكتب سعادة المدير العام ما لم ألق واحدا على مائة منه فى مكتبكم!

فدعا لى الساعى قائلا:

ـ ربنا يرفع قدرك أكثر وأكثر.

رجعت إلى مكتبى، قلت لنفسى اشتدى أزمة تنفرجى، وقلت أيضا إن عذاب تلك الأيام سيكفل لى دخول الجنة بغير حساب، وقلت أيضا إنه ليس بعد الظلام إلا النور، وإنه إن عاجلا أو آجلا فسوف تدركنى رحمة مفرج الكروب. أما الأعين الساخرة فلم تعتقنى، لم ترحمنى، ولم تقنع باستراق النظر، فهذا زميل يتساءل:

ـ كيف؟ متى؟ فى أى ظروف غريبة أقرضت المدير العام خمسة وعشرين قرشا؟!

وهذا آخر يسأل:

ـ ألم يرد المدير العام دينه؟

ومرة لاحقنى صوت يقول:

ـ هذا هو الشحاذ الذى أقرض المدير العام..

فدعوت الله أن يمدنى بصبر نبيه أيوب، وظل أملى فى رحمته قويا لا يتزعزع، وتذكرت سخرية آل نوح منه وكيف كانت العاقبة للمتقين.

ولم أذهب إلى كاتب الصادر بمكتب المراقب العام إلا بعد مرور أسبوعين كاملين فأعطانى رقم وتاريخ الكتاب الذى أرسلت معه الشكوى إلى مكتب المدير العام، وسألته بأدب:

ـ متى يمكن أن أعرف النتيجة فى مكتب المدير العام؟

فأجابنى بامتعاض وحنق لا مبرر لهما على الإطلاق:

ـ علم ذلك عند علام الغيوب!

على أى حال قد وصلت الشكوى إلى مكتب المدير العام، وسوف يتذكرنى من فوره، ولعله يستدعينى إلى مقابلته، أو يجبر فى الأقل خاطرى، وانهارت علىّ الأحلام السعيدة، ومنيت نفسى بترقية أو علاوة تدعم رزق الأولاد. وكنت راجعا إلى الأرشيف حاملا البريد وأنا أتلو آية الكرسى عندما اعترضنى موظف ومضى يسألنى:

ـ هل حقا..

وكنت قد ضقت بتحرش الساخرين فقاطعته قبل أن يتم كلامه:

ـ اخرس يا قليل الأدب.

فتراجع الرجل ذاهلا وهو يقول:

ـ أنت مجنون بلا شك.

فصحت به:

ـ اذهب وإلا خلعت الحذاء ومزقته على رأسك.

وسرعان ما حال بيننا أهل الخير والشر. وبعد يوم استدعيت إلى إدارة التحقيقات. قال لى المحقق:

ـ أنت متهم بالاعتداء بالقول على مراجع الحسابات وبالشروع فى ضربه

فقلت بذل:

ـ أنا رجل مسكين، لقد أراد أن يسخر منى فزجرته، هذا كل ما حصل.

وقال مراجع الحسابات إنه أراد أن يسألنى عن ورود مكاتبته من الخزانة، وشهد على صدق قوله زملاء له وزميلان من الأرشيف. وصح صدقه حتى لى أنا، وأدركت أننى أسأت الفهم والتصرف، ودافعت عن نفسى قائلا:

ـ كثيرون يسخرون منى وقد حسبته واحدا منهم.

وسألنى المحقق:

ـ لم يسخرون منك؟

فلذت بالصمت ولكن كثرة من الشهود فضحت حكاية القرض حتى هتفت:

ـ ذاك محض افتراء، واقعة لا أساس لها، ألصقت بى ظلما..

وكادت المناقشة بينى وبين الشهود تجاوز حدود الأدب إلى العنف..

وغادرت إدارة التحقيقات مغلوبا على أمرى تماما. وبعد أيام استدعانى رئيسى الكهل وقال لى بحزن:

ـ تقرر خصم خمسة أيام من مرتبك.

فصرخت:

ـ ذلك ظلم بين، أنا لا أكاد أجد قوت الأولاد.

ـ ليتك تمالكت أعصابك.

ـ أخطأت، ولكن لى عذرى، ترى هل تبلغ حكاية القرض مسامع سعادة المدير العام؟

فقال الكهل بثقة:

ـ لا يجرؤ أحد فى المصلحة على إبلاغها له .

رغم أحزانى جميعا فإن ثقتى بالله لم تتزعزع ، وقلت لنفسى إنه ـ جل جلاله ـ سيخرجنى من أحزانى كما أخرج يوسف من سجنه . وبقدر ما حل بى من سوء تماديت فى تخيل السعادة الموعودة وآمنت بإقبالها القريب . وانتظرت طويلا ثم ذهبت إلى كاتب الوارد بمكتب صاحب السعادة لأسأله عما تم فى شكواى فقال لى بجفاء مجهول الأسباب :

ـ إنى أخصص يوم الخميس للاستفسارات .

وكان اليوم الأحد ولكنى كنت قد لقنت الحكمة فى إدارة التحقيقات فرجعت بلا تعقيب . وشكوت حالى إلى رئيسى فمضى بى إلى وكيل المخازن ، وهو صديق رئيسى وقريب لكاتب الوارد ، فقبل الرجل أنا يتلفن إلى قريبه مستفسرا عن شكواى ، ولبث يصغى إلى كلامه غير المسموع لنا ، ثم أعاد السماعة وقال :

ـ آسف ، لقد حفظ الطلب !

اغتالنى الخبر فسقطت آمالى جثة هامدة ، وقلت وأنا مطمور تحت الأنقاض :

ـ هل عرض الطلب على سعادة المدير العام؟

ـ طبعاً ، هو الذى أمر بالحفظ .

ـ مستحيل !

فابتسم الرجل بلا تعليق فقلت :

ـ كنت أتوقع أن يدعونى لمقابلته !

فحدجنى الرجل بنظرة غريبة دون أن ينبس . وعدت مع رئيسى وأنا أقول :

ـ لا أصدق .

فقال الكهل بنبرة مواسية :

ـ ولكنه المصير المحتوم لجميع الشكاوى .

ـ ولكنه أوعز إلى بكتابتها .

ـ ما زلت أعتقد أنك كنت ضحية رجل مهذار .

ـ كلا . . كلا .

ـ إذن فلعله نسى ، وشواغل المدير تنسى .

ـ والعمل ؟

ـ سلم لله أمرك . .

ولكن الإصرار كان قد ملك علىّ أمرى . وبكل همة رحت أتحرى مواعيد المدير وحركاته وسكناته . وقررت ألا أذعن للقوة الباغية ولا للأوامر المكتبية العمياء .

* * *

وتحركت سيارة المدير لتنتظره أمام العمارة . وقف البواب والسعاة صفين بالإضافة إلى شرطى الحراسة . وكنت متواريا وراء لافتة كبيرة فى المدخل سجل عليها دعوة لمزايدة . وترامت من ناحية الفناء ضجة وتراءى موكب المدير قادما . وعندما حاذانى فى سيره بسملت ثم وثبت نحوه لأجثو بين يديه مستعطفا .

وصاح رجل :

ـ المجنون . . حذار يا صاحب السعادة . .

ووقع اضطراب شامل وضوضاء عالية .

لم أدرك بوضوح ما حدث . مادت بى الأرض . حوصرت تحت ضغط عشرات من الأيدى القوية .

ماذا أقول بعد ذلك؟ . لقد جرى معى تحقيق خطير باعتبارى مجرما سياسيا ، ولما تبين لهم خطأ الرأى وجهوا لى تهمة الشروع فى الاعتداء على المدير انتقاما لحفظ شكواى .

وقد تعلمت فى السجن حرفة النجارة ، وفى ميدانها أكدح اليوم لتربية الأولاد . .


أهلا

دقة أيقظته من شروده، دقة ماسح الأحذية التقليدية، رفع عينيه عن النارجيلة فرآه واقفا يرمقه بعين صياد. مضت لحظة وهما يترامقان ثم تهلل وجه الرجل. هو أيضا ابتسم.

ـ حمدا لله على السلامة يا بيك.

ـ أهلا.. كيف حالك؟

وأشار إليه فقرفص عند قدميه فأعطاه حذاءه. ولم يره منذ عشرين عاما، منذ انقطع عن المقهى القديم. كان فتى يافعا متين البنيان متدفق الحيوية، يطوف بأرجاء الحى فى رشاقة النحلة، يمسح الأحذية، ويروى النوادر والملح.. ها هو قد جف عوده وتغضن وجهه وأدركته شيخوخة مبكرة.

ـ لم أرك منذ عمر طويل يا بيك؟

ـ الدنيا!

ـ سافرت؟

ـ كلا.

ـ وكيف هان عليك مكانك المفضل؟

ـ ها أنا أرجع إليه عند أول فرصة فراغ.

ـ هل مرت الأعوام فى عمل متواصل؟

ـ نعم.

ـ ربنا معك .

منذ عشرين عاما كانا يكافحان عدوا مشتركا هو الفقر على اختلاف موقعهما منه .

ـ لم تتغير يا بيك والحمد لله .

ـ أنت أيضا لم تتغير !

ـ أنا؟ !

وضحك فى سخرية ورثاء .

ـ ربنا يقويك !

ـ كنت فقيرا حقا ولكن الدنيا كانت رحيمة ويسيرة .

هكذا كانت ، ترى هل يخطر بباله أنه يملك عمارة وفيلا وسيارة؟ هل يتصور أنه يخاطب لصا أريبا فى ثوب موظف كبير؟ !

ـ الحياة أصبحت شاقة .

ـ جدا جدا جدا يا بيك .

ـ ولكنك مؤمن والإيمان كنز لا يقدر بمال .

ـ الحمد لله .

ـ قديما كان العيش يتيسر لك ببضعة قروش حقا ولكن كان يتسلط على البلد إقطاعيون يبذرون الملايين على ملاذهم . .

ـ انتهى أمرهم يا بيك ولكن حالى ازداد سوءا . . .

ـ بسبب عملك فقط أما ملايين الفلاحين والعمال فقد تحسنت أحوالهم . .

ـ إنى لا ألقى إلا شاكيا مثلى . .

ـ أنت محصور فى بيئة معينة ، هذه هى المسألة .

ـ ومتى نتحسن بدورنا؟

ـ كل آت قريب .

ـ ولكن مرت عشرون سنة!

ـ ما هى إلا لحظات فى عمر الزمان .

ـ علينا أن ننتظر عشرين سنة أخرى؟

ـ لا أدرى ، قد يضحى بجيل فى سبيل الأجيال القادمة .

ـ ولكنى أرى يا بيك كثيرين من المحظوظين السعداء؟

ـ مظاهر خادعة ، لكل شكواه ومتاعبه .

ـ أراهم فى السيارات الفاخرة كأيام زمان .

ـ هل تصورت أعباءهم القاتلة؟ هل تصورت ما يؤدون للدولة من خدمات؟ ثم أمن يعمل كمن يرث؟

ابتسم مستسلما وهو مكب على عمله فى تكاسل ليطيل فرصة الحوار ، وجعل ينظر إليه بمودة صافية ، وفى نظرته تتجلى أشواق للذكريات المشتركة الماضية .

ـ هل أضايقك يا بيك؟

ـ أبدا . . هات كل ما فى قلبك .

ـ الله يكرمك ، كنا نضحك ملء قلوبنا من الماضى .

ـ وممكن نضحك الآن أيضا .

ـ ولكن . .

ـ ولكن داءنا أننا ننظر دائمًا إلى الوراء ، دائمًا نتوهم أن وراءنا فردوسا مفقودا . .

ـ ألم نكن نضحك من أعماق قلوبنا؟

ـ تذكر ، لقد رقصت يوم قامت الثورة .

ـ طبعا ، سكرت بالآمال ، سكرنا جميعا بالآمال . .

ـ ولقد تحققت الآمال، ولولا سوء الحظ، ولولا الأعداء. . ماذا كنت تتوقع؟

ـ زوال الظلم والفقر، لقمة متوفرة، مستقبل للأولاد. .

ـ حصل ذلك كله.

ـ دائما نسمع ولكن الأولاد ضاعوا جميعا. .

ـ واضح أنك تشكو كثرة العيال؟

ـ إنى أحمد الله. .

ـ المدارس مفتوحة لاستقبال الجميع.

ـ دخلوها وخرجوا كما دخلوا، ولم ينجح أحد.

ـ وما ذنب الثورة؟

ـ لا ذنب لها، ولكننا نسكن جميعا فى حجرة واحدة!، وفى المدرسة لا يفهمون شيئا. .

ـ إنكم تنشدون معجزة لا ثورة.

ـ إنه حال أبناء الفقراء جميعا.

ـ كلا.

ـ الاستثناء لا يعول عليه.

ـ كان اليأس القديم أنسب لكم!

ـ ما زال المال يملك الحظ كله.

ـ المسألة أن الأمور معقدة، أمور الدنيا كلها معقدة.

ـ خلنا فى أنفسنا.

ـ ولكننا جزء من الدنيا.

ـ هل أنتظر حتى تُحل مشاكل الدنيا؟

ـ ليس كذلك بالضبط ولكنه تساؤل لا يخلو من حقيقة.

وضحك ليخفف من وقع قوله ثم استطرد:

- ولا تنس أننا فى حال حرب.

أرجع فردة الحذاء وتناول الأخرى ثم قال:

- وسبق ذلك الهزيمة.

- لا داعى لتذكيرى بما لا يمكن أنا ينسى.

- بعد أن نفختنا الآمال حتى طرنا فى الجو.

- قيل كل ما يمكن أن يقال..

- متى نحارب يا بيك؟

- هل تنتظر من وراء الحرب حلا لمشاكلك؟

- الحركة بركة.

- ربما اللقمة نفسها لن تجدها.

فهز منكبيه استهانة.

- سنحارب عندما نضمن النصر.

- لم ينبس ولكن وضح أنه لم يقتنع.

- هل تعرف معنى الحرب؟.. هل تتصور حالنا إذا خربت المصانع والسدود والمواصلات؟

- نفعل بهم مثلما يفعلون بنا.

- ستتوقف الحياة هنا.

- ليكن، المهم أن نحرر أرضنا.

- هل تهمك الأرض حقا أم أنك تريد الخراب؟

- أريد أن أحيا فى ظل العدل.

- يبدو أنك تريد أن تهدمها على رءوس من فيها.

- لا والله يا بيك.

خيل إليه أنه يقصده بشيء ما .

ـ المهم النصر لا الانتقام .

ـ أنا لا أفهم .

ـ الأمور واضحة .

ـ يا بيك أنا أريد النصر والحياة المعقولة ، خبرنى كيف ومتى يتم ذلك؟

ـ لا أدرى متى ولكنه يتم بالصبر والعمل والإخلاص . .

كأنه أصم ، يرفض التصديق والاقتناع ، وقد أنجز عمله ، أعطاه خمسة قروش بدلا من قرشين ، تهلل وجهه ودعا له بالستر ، واعترف فيما بينه وبين نفسه بأنه فى حاجة ماسة لذاك الدعاء ، وبأنه يشاركه حيرته فضلا عن المخاوف التى ينفرد بها وحده ، ورآه يهم بالذهاب فسأله :

ـ ما رأيك فيما قلت؟

ابتسم مداريا شكوكه وتمتم :

ـ كلام جميل .

ـ وحقيقى أليس كذلك؟

ـ مثل كلام الراديو .

شعر بأنه يذكره بكلام الراديو طيلة عشرين عاما ، شعر بأنه يوبخه فأوشك على الانفعال .

ـ ولكن بروح جديدة تماما .

ـ نرجو ذلك .

ـ ألا تريد أن تصدق؟

فرفع درجة صوته ليقنعه بإيمانه قائلا :

ـ ما دمت تصدق فأنا أصدق .

ضحك ضحكة فاترة مقتضبة، وسأله الرجل:

- هل ترجع إلى المقهى كالأيام الخالية؟

- إن شاء الله كلما سنحت فرصة..

- عندما رأيتك فرحت ورجعت فجأة إلى الشباب.

ثم حياه وانصرف.

وصفق يطلب وقودا للنارجيلة الخابية.

أعمال نجيب محفوظ

١ ـ	مصر القديمة	ترجمة	١٩٣٢
٢ ـ	همس الجنون	مجموعة قصصية	١٩٣٨
٣ ـ	عبث الأقدار	رواية تاريخية	١٩٣٩
٤ ـ	رادوبيس	رواية تاريخية	١٩٤٣
٥ ـ	كفاح طيبة	رواية تاريخية	١٩٤٤
٦ ـ	القاهرة الجديدة	رواية	١٩٤٥
٧ ـ	خان الخليلي	رواية	١٩٤٦
٨ ـ	زقاق المدق	رواية	١٩٤٧
٩ ـ	السراب	رواية	١٩٤٨
١٠ ـ	بداية ونهاية	رواية	١٩٤٩
١١ ـ	بين القصرين	رواية	١٩٥٦
١٢ ـ	قصر الشوق	رواية	١٩٥٧
١٣ ـ	السكرية	رواية	١٩٥٧
١٤ ـ	اللص والكلاب	رواية	١٩٦١
١٥ ـ	السمان والخريف	رواية	١٩٦٢
١٦ ـ	دنيا الله	مجموعة قصصية	١٩٦٢
١٧ ـ	الطريق	رواية	١٩٦٤

١٨ ـ	بيت سيئ السمعة	مجموعة قصصية	١٩٦٥
١٩ ـ	الشحاذ	رواية	١٩٦٥
٢٠ ـ	ثرثرة فوق النيل	رواية	١٩٦٦
٢١ ـ	ميرامار	رواية	١٩٦٧
٢٢ ـ	أولاد حارتنا	رواية	١٩٦٧
٢٣ ـ	خمارة القط الأسود	مجموعة قصصية	١٩٦٩
٢٤ ـ	تحت المظلة	مجموعة قصصية	١٩٦٩
٢٥ ـ	حكاية بلا بداية ولا نهاية	مجموعة قصصية	١٩٧١
٢٦ ـ	شهر العسل	مجموعة قصصية	١٩٧١
٢٧ ـ	المرايا	رواية	١٩٧٢
٢٨ ـ	الحب تحت المطر	رواية	١٩٧٣
٢٩ ـ	الجريمة	مجموعة قصصية	١٩٧٣
٣٠ ـ	الكرنك	رواية	١٩٧٤
٣١ ـ	حكايات حارتنا	رواية	١٩٧٥
٣٢ ـ	قلب الليل	رواية	١٩٧٥
٣٣ ـ	حضرة المحترم	رواية	١٩٧٥
٣٤ ـ	الحرافيش	رواية	١٩٧٧
٣٥ ـ	الحب فوق هضبة الهرم	مجموعة قصصية	١٩٧٩
٣٦ ـ	الشيطان يعظ	مجموعة قصصية	١٩٧٩
٣٧ ـ	عصر الحب	رواية	١٩٨٠
٣٨ ـ	أفراح القبة	رواية	١٩٨١
٣٩ ـ	ليالى ألف ليلة	رواية	١٩٨٢

٤٠ ـ	رأيت فيما يرى النائم	مجموعة قصصية	١٩٨٢
٤١ ـ	الباقى من الزمن ساعة	روايــــة	١٩٨٢
٤٢ ـ	أمام العرش (حوار بين الحكام)	روايــــة	١٩٨٣
٤٣ ـ	رحلة ابن فطومة	روايــــة	١٩٨٣
٤٤ ـ	التنظيم الســرى	مجموعة قصصية	١٩٨٤
٤٥ ـ	العائش فى الحقيقة	روايــــة	١٩٨٥
٤٦ ـ	يوم قتل الزعيم	روايــــة	١٩٨٥
٤٧ ـ	حديث الصباح والمساء	روايــــة	١٩٨٧
٤٨ ـ	صبــاح الــورد	مجموعة قصصية	١٩٨٧
٤٩ ـ	قشـــــتمر	روايــــة	١٩٨٨
٥٠ ـ	الفجر الكاذب	مجموعة قصصية	١٩٨٨
٥١ ـ	أصداء السيرة الذاتية	مجموعة قصصية	١٩٩٥
٥٢ ـ	القــرار الأخيـر	مجموعة قصصية	١٩٩٦
٥٣ ـ	صــدى النسـيان	مجموعة قصصية	١٩٩٩
٥٤ ـ	فتــوة العطــوف	مجموعة قصصية	٢٠٠١
٥٥ ـ	أحــلام فترة النقاهة	مجموعة قصصية	٢٠٠٤


9 789770 915820